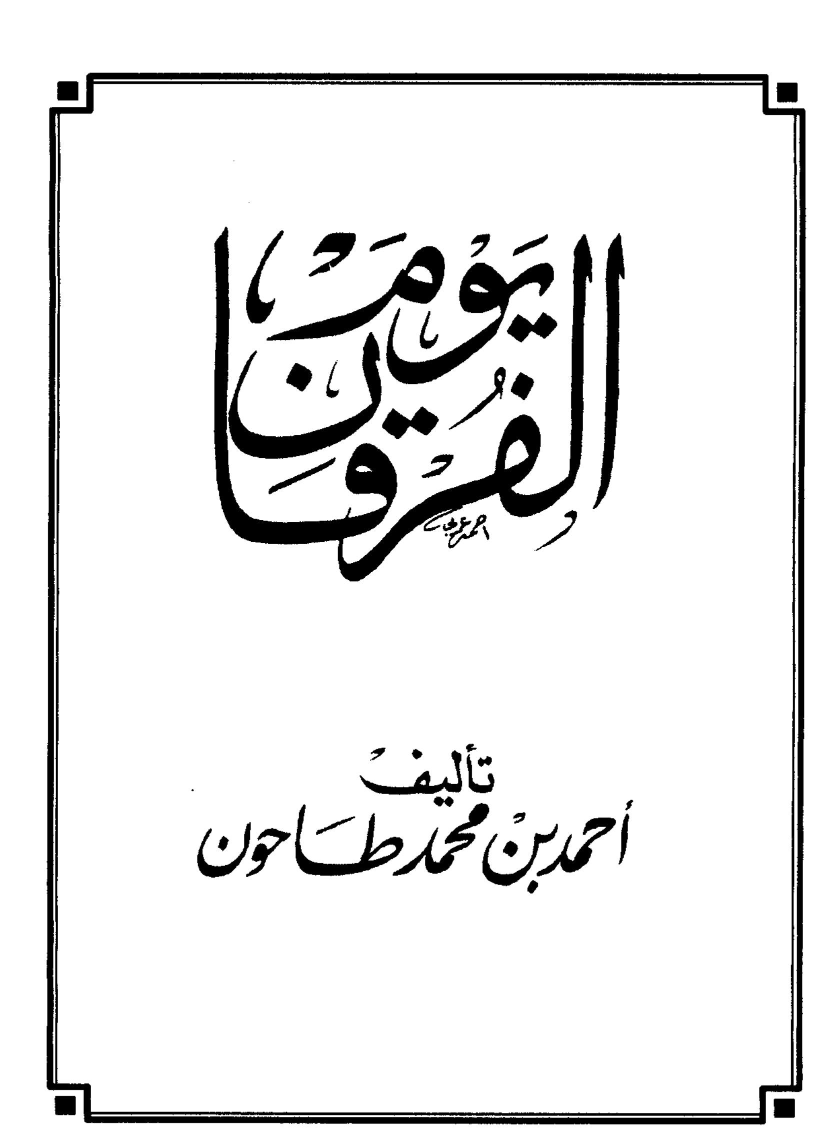

يوم الفرقان
تأليف
أحمد بن محمد طاحون

يسرني أن أقدم خالص الشكر لوزارة الإعلام – إدارة مطبوعات جدة – على عنايتها بمراجعة هذا الكتاب والإذن بطبعه بخطاب رقم ١٠١١ المؤرخ في ١٤٠٣/٨/٢هـ

الطبعة الأولى في عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م

وهذه الطبعة الرابعة بالقاهرة في عام ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

[سورة محمد : ٧]

* * *

وَلَسْتُ أُبالي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا

عَلَى أيِّ جَنْبٍ كَانَ في اللَّه مَصْرَعي

خُبَيْبُ بنُ عَدِيٍّ

الناشر : مكتبة بحر العلوم

بمدينة دمنهور

للمؤلف :

* مرشد الدعاة إلى الله (دراسة وتطبيق) .
* رياض الفالحين ومنار السالكين . * البيان (ست رسائل) .
* أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم [خمسة أجزاء] .
* الكوكب المنير فى أدب النفس وتهذيب الضمير .
* الفائق فى الأخلاق والتربية [تنقيح وتلخيص كتاب : فضل الله الصمد فى توضيح « الأدب المفرد » للإمام البخارى] .
* هداية المريد لتحصيل معانى كتاب : « تجريد التوحيد المفيد » للإمام المقريزى (طبعة منقحة ومزيدة) .
* أخرج كتاب « الشكر » وكتاب « التوكل » وهما لابن أبى الدنيا من علماء القرن الثالث من الهجرة مع زيادات وتعليقات وتعريف بالمؤلف .
* مع بحر النور الهادى البشير (صلَّى اللَّه عليه وسلَّم) .
* الزهور النديَّة فى « خصائص وأخلاق خير البرية » : « تلخيص وتهذيب المقصد الثالث من كتاب المواهب اللَّدنِّيَّة بالمنح المحمدية » للإمام القسطلانى .
* الدُّعاء فى الضرَّاء والسرَّاء أذكار ودعوات مباركات .
* إلى البرهان يا أولى الألباب . * مع القرآن الكريم .
* حضارة الإسلام وأوربا . * فجر الإسلام « عرض قصصى » .
* سليمان الحكيم وبلقيس ملكة سبأ ودروس وعبر من النملة والهدهد .
* يوم الفرقان * زاد الأتقياء من وصايا خاتم الأنبياء .
* فى أنوار سورة الفرقان . * الثمار والرياحين فى قصص من القرآن الكريم .
* دليل الحج والعمرة والزيارة بالسؤال والجواب .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة :

الحمدُ للَّه الهادي إلى الحقِّ ، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّ الهدَى ، ورسولِ الرحْمةِ ، وهادِي البشريةِ إلى الصِّراطِ المستقيمِ ، الداعِي إلى الخيرِ والمحبةِ والسلامِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّه بنِ عبدِ المطلبِ ، وعلى آلِه وأصحابِه الطيِّبينَ الطاهرينَ ، ومَن اتَّبعَ هُداهم إلى يومِ الدِّينِ .

أمَّا بعدُ :

فإنَّ للمسلمين في شهرِ رمضانَ المباركِ مواقفَ وذكرياتٍ عزيزةً غاليةً ، ما أجملَ أنْ يتدارسُوها ، وأنْ يستعِيدوا صُورَها ، وأن تَلْتَقيَ قُلوبُهم حولها مخلِصةً واعيةً ؛ فيكونَ لهم مِن هذا دوافعُ نحوَ العزَّةِ والمجدِ ، ويكونَ ذلك باعثًا على أن يُحرِّكَ في أعماقِهم طاقاتِ العملِ من أجلِ إعادةِ

سوالفِ قوتِهم ، ووحدتِهم ، فيعودوا إلى ما كانَ عليه آباؤُهم وأجدادُهم هداةً للناسِ ، وبُناةَ حضارةٍ ، ورُسُلَ عدالةٍ ، يَنشرون الرِّفقَ ، ويأخذُون بيدِ المظلومِ ، ويرحَمون الضعيفَ ، ويدفعونَ عن أوطانِهم غاراتِ الإلحادِ ، ويحمُونَها من كلِّ عُدْوانٍ ، ويرطِّبون أنفاسَ المحرومينَ ، ويردَعون كلَّ باغٍ أثيم ، ويردُّون عن مقدَّساتِهم قرونَ الشيطانِ التي أطلَّت بخُيلائِها ونارِها ، تفتِنُ المؤمنين ، وتروِّع الآمنين ، وتُطارِدُ أهلَ الحقِّ وأصحابَه ، وتبطِشُ بالضعفاءِ ، وتسفِكُ الدماءَ .

إنَّ أعداءَ الإسلامِ تُفرِّقُهم الأهواءُ والفسلفاتُ والمذاهبُ ، ولكنَّهم يجتمِعون على الكيدِ للمسلِمين ، ويتعاونُون على إضْعافِهم ، ويعمَلُون على الوقوفِ في طريقِ نهضتِهم وتقدُّمِهم ، ويسعَون لتمزيقِ صُفوفِهم .

وإنَّ الحوادثَ الكبارَ التي يتعرَّضُ لها كثيرٌ مِن المسلمين في عصرِنا الذي نعيشُ فيه لجديرةٌ بأن تُوقظَ الهممَ ، وتبعثَ

على الغَيْرةِ ، وتحفِزَ كلَّ مؤمنٍ وتَدفعَه إلى الاعتصام بكتابِ اللَّه عزَّ وجلَّ يتمسَّكُ به ، ويتخذُه دستورًا لحياتِه ، ونبراسًا يهديه في كلِّ شئونِه ، كما تحفِزُه هذه الحوادثُ الحاضرةُ إلى اتباع خُطَى النبيِّ ﷺ يترَّسمُها ، ويسيرُ على هديِها ، وإلى سِيَرِ أجدادِه يستعيدُ أمجادَها وعظمَتها ليعرِفَ عن وعْيٍ وتدبُّرٍ أسبابَ قوَّتِهم ، وعواملَ تقدُّمِهم على سائرِ الأُممِ في زمانِهم ، وكيفَ صاروا في نحوِ قرنٍ مِن الزمانِ منذُ فجرِ الإسلامِ روَّادَ البعثِ في الشرقِ والغربِ ، وعاشَ الناسُ في ظلالِ حضارتِهم الرحيمةِ : آمِنين سُعداءَ يجِدون العدلَ والبرَّ ، والإخاءَ والمساواةَ .

وفي القرونِ الأُولى ، من قيامِ الحضارةِ الإسلاميةِ ، كان للعلمِ والمعرفةِ منارةٌ عاليةٌ ، والتفتَ الناسُ في كلِّ مكانٍ إلى أضواءِ العلمِ الساطعةِ مِن الحواضرِ الإسلاميةِ في مكة المكرَّمةِ ، والمدينةِ المنوَّرةِ ، وفي بغدادَ ، والبصرةِ ، ودِمَشْقَ ، والقاهرةِ ، وحَلَبَ ، وفي بُخَارَى ، وسَمَرْقند ، وفي فاسَ ، وقُرْطُبةَ ، وغيرِها من الحواضر الزَّاهية بنور العلم

والعدل والحياة الكريمة .

وسعَى الناسُ من أقطار الأرض إلى مواردِ الحكمةِ الصافيةِ لدى المسلمين، ينهَلُون منها ، وإلى ينابيعِ العلومِ والمعارفِ يغترفُون منها ، ثم يعودُون إلى بلادِهم ليُعـلِّموا مَنْ وراءَهم ، وينقُلوا إلى بلادِهم قبسًا مِن حضارةِ الإسلامِ .. ذلك أنَّ المسلمين فتَحوا أبوابَ مدارسِهم ومعاهدِهم وحواضرِهم لكلِّ راغبٍ في الخير مِن كلِّ جنسٍ ، ومن كلِّ دينٍ .

الإسلام نورٌ ورحمةٌ :

إنَّ الإسلامَ هو أعظمُ نعمةٍ للَّهِ على عبادِه ، به عرَف الناسُ ربَّهم وهُدُوا إلى الرشادِ ، وإنَّ رسالةَ الإسلامِ هي رسالةُ البعثِ لكلِّ الناس ، ولقد كان ظهورُ الإسلامِ في القرنِ السابع من الميلادِ خيرًا وبركةً على الدنيا كلِّها ، إذ كانتِ الدنيا أشبهَ بالأرض الميْتةِ نزَل عليها غَيْثٌ مباركٌ فأحياها ، وكان الناسُ في حَيْرةٍ وضلالٍ في كلِّ شؤونِ حياتِهم فهداهُم الإسلامُ إلى الصراطِ السويِّ ، والطريقِ الأقومِ الذي لا عِوَج

فيه ولا انحرافَ ، وكلُّ حضارةٍ قامت بعد ظهورِ الإسلامِ إنما أساسُها حضارةُ الإسلامِ ، وكلُّ مدنيةٍ عرَفها الناسُ بعدَ ذلك إنَّما نمَت أُصولُها على مبادئَ المسلمين ، وكلُّ خيرٍ نعِمَ به الناسُ في حياتِهم الفكرية والاجتماعيةِ إنَّما الفضلُ فيه يرجِعُ إلى هذا الدّينِ الذى رَضِيَه اللَّه للنَّاسِ أجمعين : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء : ٩] .

أحمد بن محمد طاحون

وَقفةٌ وتأمُّلٌ

يحسُنُ بنا قبل أن نتناولَ تفاصيلَ غزوةِ بدرٍ الكبرى المباركةِ أنْ نعقدَ مُقارنةً بين الظُّروفِ التي تُحيطُ بالمسلمين في عصرِنا الحاضرِ ، والظروفِ التي كانت تُحيطُ بالمسلمين في دَولَتِهم الناشئةِ إبَّانَ غزوةِ بدرٍ الكُبْرى .

ونحن بيسيرٍ من التأمُّلِ في حياتِنا المعاصرةِ ، نجدُ أنَّ التجمُّعَ الإلحاديَّ الصليبيَّ اليهوديَّ في العصرِ الحديثِ ، يُشبِهُ إلى حدٍّ كبيرٍ صورةَ التجمُّعِ الوثنيِّ اليهوديِّ الذي كان قائمًا في صدرِ الإسلامِ .

فقد واجهَ النبيُّ ﷺ وأصحابُه قبلَ غزوةِ بدرٍ الكبرى وبعدَها عداءَ اليهودِ والوثنيِّين ، وبسَطَ اليهودُ - وهم أهلُ كتابٍ- عواطفَهم للوثنيين وتعاونُوا معهم منذُ جَهَر النبيُّ ﷺ بدعوةِ الإسلامِ على الكيدِ له ، والعملِ على القضاءِ على دينِ اللّٰه والصدِّ عنه .

ولابدَّ لنا من الالتفاتِ إلى أنَّ اليهودَ عمِلوا على تعبئةِ الكفارِ

نفسيًّا ، وسعَوا لتهيئةِ جوٍّ ملائم لإثارةِ العواطفِ ، وإيقادِ نارِ الحربِ ؛ يُريدون بذلك أن يُطفئُوا نورَ الدعوةِ الكريمةِ ، وأن يكيدوا للنبيِّ ﷺ حسدًا مِن عندِ أنفسِهم مع أنَّهم كانوا أعلمَ الناس بصدقِه ، وبأنَّه النبيُّ الذي بشَّرت به التوراةُ .

ومن أساليبهم في ذلك :

أنهم بعثُوا إلى قريشٍ بأسئلةٍ يطلُبون من النبيِّ ﷺ الإجابةَ عنها ، ظانِّين أنهم بذلك يُسبِّبون له الحرجَ ، ولكن العنايةَ الإلـٰهيَّةَ كانت تتولَّى الإجابةَ ، فيرتدُّ كيدُ اليهودِ إلى نُحورِهم ، ويَبْطُلُ سعيُهم :

فقد رُوي أن اليهودَ بعثَت إلى قريشٍ أن سَلُوه : عن أصحابِ الكهفِ ، وعن ذي القَرْنين ، وعن الرُّوحِ ، فإن أجاب عن الكلِّ أو سَكَت عن الكلِّ فليس بنبيٍّ ، وإن أجابَ عن بعضٍ وسكَت عن بعضٍ فهو نبيٌّ ، فبيَّن لهم القرآنُ الكريمُ القصَّتين - قصةَ أهلِ الكهفِ ، وقصَّةَ ذي القَرْنين ، وأبْهم أمرَ الرُّوح - قال تعالى في سورةِ « الإسراءِ » : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ .

كما كان اليهودُ يعمَدون إلى الإشاعاتِ لتعبئةِ النفوسِ وتهيئتِها للحربِ، ولهم في ذلك أساليبُ انفردُوا بها، وخصوصًا في ذاك الزمانِ: فقد حدَث أن بَعَث رسولُ اللَّه ﷺ سريَّةً بإمارةِ عبد اللَّه بنِ جَحْشٍ ومعه ثمانيةٌ من المهاجِرين إلى مكانٍ اسمُه نخلةُ (بينَ مكَّةَ والطائفِ) لكي يترصَّدَ قريشًا، ويجمـعَ أخبارَهم، فلمَّا نزَل بنخلةَ مرَّت به عِيرٌ لقريشٍ تحمِلُ زبيبًا وأدُمًا «الجُلود» وتجارةً فيها عمرُو بنُ الحَضْرميِّ وجماعةٌ من قريشٍ، وكان ذلك في آخرِ يومٍ من رجبٍ وهو مِن الأشهرِ الحرمِ.

تشاوَرَ المسلمون في أمرِ هذه العِيرِ وقالوا: لئن تركْناهم هذه اللَّيلةَ ليدخُلُنَّ الحرمَ ولا يُمكنُنا حينئذ قتالُهم، ولئن قاتلْناهم فلنقتُلَنَّـهم في الشهرِ الحرامِ، فتردَّدَ المسلمون في الأمرِ، مهابةَ القتالِ في الشهرِ الحرامِ ثم اجتهَدوا في الأمرِ وشجَّعوا أنفسَهم عليهم، واتَّفقوا على قتلِ مَن قدَرُوا عليه منهم، وعلى أخذِ ما معهم، وكان من الصحابةِ واقدُ بنُ عبدِ اللَّه التميميُّ فرمَى عمرَو بنَ الحضرميِّ بسهمٍ فقتَله، وأسرُوا

رجلَين من قريشٍ وغنِموا العيرَ ، ثم أقْبلَ عبدُ اللّه بنُ جَحْشٍ وأصحابُه بالعيرِ وبالأسيرين ، حتى وصلُو إلى رسولِ اللّه ﷺ بالمدينة المنوَّرة .

فلمَّا علِم الرسولُ ﷺ بالأمرِ قال : « **ما أمرتُكم بقتالٍ في الشهرِ الحرامِ** » فوقَّفَ العيرَ والأسيرين ، وأبى أن يأخُذَ مِن ذلك شيئًا ، فلمَّا قال الرسولُ ﷺ ذلك ندِموا ، وظنُّوا أنَّهم قد هلَكوا .

وهنا بادَرَ اليهودُ إلى اغتنامِ الفرصةِ لإشاعةِ جوِّ الحربِ وتهيئةِ النفوسِ لها وقالوا : عمْرُو بنُ الحضرميِّ قتَلَه واقدُ بنُ عبدِ اللّه .. ثم أخذوا يَنْسجون حولَ ذلك عباراتٍ يسهُلُ تناقلُها على الألسنةِ يُفائلون بها على رسولِ اللّه ﷺ فقالوا : عمرٌو يعني : عَمَرتِ الحربُ ، والحضرميُّ يعني : حَضَرتِ الحربُ ، وواقدُ بنُ عبدِ اللّه يعني : وقدتِ الحربُ ، فجعَل اللّه ذلك عليهم لا لهم .

فلمَّا أكثَرت يهودُ وغيرُهم في ذلك أنزَل اللّه على نبيِّه ﷺ : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ

كَبِيرٌۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾

[البقرة: ٢١٧].

أي إن كنتم قَتَلْتم مَن قَتَلْتم في الشهرِ الحرامِ، فقد صَدُّوكم عن سبيلِ اللّه مع الكفرِ به سبحانه وتعالى، وصدُّوكم عن المسجدِ الحرام، وإن إخراجَكم منه وأنتم أهلُه أكبرُ عندَ اللّه مِن قتلِ مَن قَتَلْتم منهم.

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ أي قد كانوا يفتِنون المسلمَ في دينِه حتى يردُّوه إلى الكفرِ بعدَ إيمانِه، فذلك أكبرُ عندَ اللّه مِن القتلِ.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ أي ثم هم مُقيمون على أخبثِ ذلك وأعظمِه غيرَ تائِبين ولا نازِعين.

فلمَّا نزَل القرآنُ الكريمُ بهذا الأمرِ، وفرَّج اللّه تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفَقِ والخوفِ، قبَض رسولُ اللّه

ﷺ العيرَ والأسيرين وتجلّى عن عبدِ اللّه بنِ جَحْشٍ وأصحابِه ما كانوا فيه .

وهذه أولُ غنيمةٍ غنِمها المسلمون ، وعمرُو بنُ الحضرميِّ أولُ من قتلَه المسلمون ؛ لأنَّ هذه السريةَ وقَعت قبلَ غزوةِ بدرٍ الكبرى بنحوِ شهرٍ ونصفٍ .

وهذه بعضُ أمثلةٍ تُبينُ لنا حرصَ اليهودِ في ذاك الزمانِ على إثارةِ المتاعبِ للمسلمين ، والصدِّ عن الدِّينِ الحقِّ ، ويتَّضِحُ لنا منها اتفاقُهم مع الوثنيِّين في عَدائهم للنبيِّ ﷺ وأصحابِه .

ما أشْبَهَ اللَّيلةَ بالبارحة :

ونحن حين نتأمَّلُ حالَ المسلمين اليومَ نجدُهم يُواجِهون عداءَ اليهودِ الذين تُعاضِدُهم القوى الإلحاديةُ والصليبيَّةُ على ما بين اليهودِ والصليبيِّين من تناقضٍ في العقائدِ ، وعلى ما بين الأوروبيِّين مِن صراعٍ مذهبيٍّ وفكريٍّ ، ولكنَّهم جميعًا يلتقُون على الرغبةِ في الكيدِ للإسلامِ ، وهذا ما يُؤَيِّده الواقعُ بما تجري به الحوادثُ في كثيرٍ مِن أجزاءِ الوطنِ الإسلاميِّ العظيم ، وتأمَّل تضافُرهم إزاءَ قضيةِ فلسطينَ ، وتعاوُنَهم على إخراجِ أهلِها منها ،

مع انحياز الأمريكيين والأوربيِّين في جميع المحافل والمواقف إلى جانب اليهود ، فالأمثلةُ كثيرةٌ تَشْهَدُ لها الحوادثُ المتعددةُ .

ونحن إذا عُدْنا إلى صدرِ الإسلامِ فإننا نجدُ أهلَ الشركِ تعاونوا على إيذاءِ المسلمين ، وعمِلوا على الكيدِ لهم ، حتى هاجروا من مكةَ بلدِهم الحبيبِ إلى الحبشةِ ، ثم إلى يثربَ ، تارِكين أموالَهم ومَتاجِرَهم ودُورَهم حيث نَهَبَها المشركون .. وقد عاشَ المسلمون في مَهْجَرِهم يتحرَّقون شوقًا إلى بلدِهم الأمين ، ويتُوقُون إلى إنقاذِ المستضْعَفين مِن إخوانهم الذين حَبسهم الكفارُ داخلَ مكةَ .

وإنَّ المهاجِرين مِن أهل فلسطينَ الحبيبةِ ؛ وهم بالملايين ، ليتحرَّقون شوقًا إلى العودةِ ، ويتطلَّعون في حنينٍ صادقٍ وعواطفَ هادرةٍ إلى أرضِ الآباءِ والأجدادِ ، ذلك أنَّ وطنَ الإنسانِ جزءٌ من رُوحِه ، وقطعةٌ من قلبِه ، وتلك سنَّةُ الحياةِ .

حُبُّ الوطن :

وقد رُوي عن أُمِّ المؤمنين عائشةَ رضِي اللّه عنها أنَّها سألت رجلًا قدِم من مكةَ إلى يثربَ ، وكان ذلك في حضرةِ

النبيِّ ﷺ فقالت له : كيف تركْتَ مكةَ ؟ فذكَر من أوصافِها الحسنةِ ما اغْرورَقَتْ منه عينَا رسولِ اللَّه ﷺ ، فقال الرسولُ ﷺ للرجُلِ : « **لا تشوِّقْنا يا فلانُ ، ودَعِ النفوس تقرُّ** » .

وإذا كان هذا حالَ أكرمِ إنسانٍ على اللَّه تـمتلئُ عيناه بالدموع حينَ يُذكَرُ أمامه موطنُه الذي أُخرج منه ، فماذا يكونُ شأنُ إخوانِنا الذين تسانَدَت على إيذائهم والكيدِ لهم قُوًى يهوديَّةٌ وإلحاديَّةٌ وصليبيَّةٌ ، أرغمَتهم بقوةِ الحديدِ والنارِ على تركِ الدارِ والولدِ والديارِ .

إنَّ الصراعَ أبديٌّ بينَ الحقِّ والباطلِ ، والمسلمون سيثبُتون على الحقِّ ، وسيُدافِعون عن حقوقِهم المشروعةِ وسيعمَلُون على دَحْرِ الباطلِ وإزهاقِه مهما كان جبروتُ مسانِدِيه ، معتمِدين على ربِّهم ، واثِقين بنَصْرِه ، ولن يتخلَّى اللَّه أبدًا عن أُمةٍ تؤمنُ بربِّها ، وتتمسَّكُ بالحقِّ ، ولن يُخلفَ اللَّه وعدَه بفضله وإحسانه : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر : ٥١] .

مقديشو في عام : ١٩٦٧ من الميلاد **أحمد بن محمد طاحون**

مَشْرُوعِيَّةُ القِتَالِ فِي الإِسْلَامِ

إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ شرَع القتالَ وأمرَ به المسلمين وفرَضَه عليهم لحمايةِ العقيدةِ، وصيانةِ الحقوقِ، وللذَّودِ عن المقدَّساتِ، وردِّ العُدوانِ على الأنفسِ والأموالِ والأوطانِ، ليعيشَ المعتقِدُ اعتقادًا صحيحًا حرًّا في ديارِه، لا يفتِنُه أحدٌ عن دينِه، ولا يَسْلُبه أحدٌ حقًّا من حقوقِه، وليمارِسَ عباداتِه في حُرِّيةٍ.

فرضَ اللَّه القتالَ حتى يظلَّ التوحيدُ للَّهِ خالصًا، ولتكونَ كلمةُ اللَّه هي العُليا، وليسودَ الأمنُ والسلامُ، وتُكسرَ شوكةُ كلِّ معتدٍ أثيم، وينعَمَ الناسُ بالعدلِ والإخاءِ.

أمَر اللَّهُ المسلمين بأن يُعِدُّوا القوةَ والسلاحَ؛ ليردُّوا عن أنفسِهم وعن مقدَّساتِهم، وعن أموالِهم غاراتِ الملحِدين والطامِعين والمشركين، وأذِن سبحانه لهم في القتالِ لهذه الغاياتِ الكريمةِ، يقولُ عزَّ وجلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟

مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩- ٤١].

أي إنَّني أحْلَلْتُ لهم القتالَ لأنَّهم ظُلموا، ولم يكنْ لهم ذنبٌ فيما بينَهم وبينَ الناس إلَّا أن يَعْبدوا اللّه، وأنَّهم إذا ظهَروا أقاموا الصلاةَ، وآتوُا الزكاة، وأمرُوا بالمعروفِ ونَهَوا عن المنكرِ، وهؤلاء أهلُ الصَّلاح والعملِ الصالح هم النبيُّ ﷺ وأصحابُه الكرامُ المجاهدون رضِي اللّه عنهم أجمعين، ثم أنزَل اللّه تبارك وتعالى عليه: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: حتى لا يُفتنَ مؤمنٌ عن دينِه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي: حتى يَعْبدوا اللّهَ ولا يُعْبَدَ معه غيرُه.

معنى الحرب في الإسلام :

وإن الحربَ في الإسلامِ جهادٌ مقدَّسٌ : غايتُه إعلاءُ كلمةِ الحقِّ ، وسبيلُه هدايةُ الخلقِ إلى دين اللَّه الذى رضيَهُ لعباده ، وإرشادهم إلى كلِّ خيرٍ وبرٍّ ، وتوطيدُ أركانِ الدولةِ الإسلاميةِ الرَّائدةَ للأمم ، والمحافظةُ على حقوقِ المسلمين ومواطِنيهم من غير المسلمين ، وحمايةُ عقيدةِ التوحيدِ ، وتوفيرُ حريَّةِ العبادةِ للمؤمنين ، ولسائر المواطنين من أصحاب المِلَلِ والنِّحَلِ الأخرى ، مع صيانةِ المؤمنِ حتى لا يُفْتَنَ عن دينِه ، ومع الدفاعِ عن كرامةِ الموحِّدين ، يقولُ الحقُّ تبارك وتعالى : ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

* * *

مَعْرَكَةٌ خَالِدَةٌ

إذا كانتِ الأمورُ تُقاسُ بخواتِيمها ، وإذا كانتِ المعاركُ الفاصلةُ تُوزَنُ بنتائِجِها ، فإنَّ غزوةَ بدرٍ الكُبرى على هذا المقياسِ لها الدرجةُ الممتازةُ من بينِ الأمورِ ذاتِ البالِ ، ولها المنزلةُ الرفيعةُ إذا قُورنت بأشهرِ المعاركِ الفاصلةِ في التاريخِ ، ذلك لأنَّ معركةَ بدرٍ كانت ذاتَ آثارٍ عميقةٍ وبعيدةِ المدى في حياةِ الإسلامِ والمسلِمين ، فكانت بحقٍّ فُرقانًا بين الحقِّ والباطلِ ، والهدايةِ والضَّلالة .

وحَسْبُ الباحثِ أن يراها حربًا بين قُوَّتَين غيرِ مُتكافئتيْن ، فالمسلمون كانوا قِلَّةً ، والكفارُ مع كثرةِ عدَدِهم كانوا على استعدادٍ حربيٍّ تامٍّ لخوضِ معركةٍ طويلةِ المدى ، فقد خرَج المشركون من مكَّةَ خروجَ الجيشِ المحاربِ لا خروجَ طالبِ تجارةٍ أو رحلةٍ .

أما المسلمون فقد خرَجوا من المدينة المنوَّرة لم يفكِّروا في أمرِ الحربِ ، وإنما خرَجوا للقاءِ القِلَّة التي صَحِبتْ أبا

سفيانَ بن حرب ، وهم في طريقِ عودتِهم من الشامِ بالتجارةِ .

وعلى الرَّغْمِ من هذه الظروفِ تَمَّ لقاءُ الجيشَين ، وأراد اللَّه عزَّ وجلَّ لجندِه أن يعودوا ، وقد تحقَّق وعدُه الأزليُّ بإبطالِ الباطل ومَحْقِه ، ونصرةِ الحقِّ وإعلاءِ شأنِه ، أمَّا أهلُ مكَّةَ من المشركين فقد عادُوا بعدَ أن خلَّفوا على أرضِ المعركةِ سبعين هالكًا من زعمائِهم ، وسبعين آخرين أَسْرَى مُصفَّدين يُقادُون إلى المدينةِ المنوَّرةِ .

وإلى هذا تُشير الآياتُ من سورةِ « آل عمرانَ » وفيها يقول اللَّه تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

و﴿أَذِلَّةٌ﴾ : أي أنهم قليلو العددِ ، وهم لم يكونُوا في أنفسِهم أذلَّةً ، بل كانوا أعزَّةً ، ولكنْ نِسبتُهم إلى عدوِّهم وإلى جميعِ الملحدين والمشركين في أقطارِ الأرضِ تقتضي عندَ التأمُّلِ ذلَّتَهم أي أنهم يُغلبون بمنطق عقل الإنسان وتصوُّره ، ومن هنا يظهرُ فضلُ اللَّه على عبادِه بنصرِه وتأييده ، على الرَّغمِ من مقاييسِ البشرِ في تَرْجيحِ إحدَى

الكِفَّتين على الأخرى : ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران : ١٢٦] .

وقد كان لهذه النَّتيجةِ التي فاجأت أهلَ الغرورِ والكثرةِ أثرٌ مؤلمٌ في نفوسِ مَن لم يَشْهَدِ المعركةَ من مُشركي مكَّةَ ، وأصابتهم الدَّهشةُ والحَيْرةُ حينَ وصلتهم أنباءُ ما حدَث فيها ، بل إنَّ بعضَهم لم يُصَدِّقِ المتحدثين بذلك :

ومن ذلك : فقد حدَث أن وصَل الحَيسُمانُ الخزاعيُّ إلى مكَّةَ عقبَ المعركةِ فقالوا له : ما وراءَك ؟ قال : قُتل عُتْبةُ بنُ ربيعةَ ، وشيبةُ ، وأبو الحكمِ (أبو جهل) وفلانٌ .. وفلانٌ .. فقال صَفوانُ بنُ أمية ، وهو جالس في الحِجْرِ : واللّه ما يُعْقَلُ هذا! .. سلُوه عنّي .. فسألوه : وماذا حَدَث لصَفْوانَ ؟ فقال : « هو ذاك الجالسُ في الحِجْرِ ، وقد- واللّهِ - رأيتُ أباه وأخاه حين قُتِلا » .

ولمَّا قدِم مكَّةَ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطلبِ سأله عمُّه أبو لَهَبٍ في لَهَفٍ عن خبرِ قريشٍ ، فقال : « واللَّهِ ما هو إلَّا أن لقِينا القومَ ، فمنَحْناهم أكتافَنا ، يقتُلوننا كيف

شاءوا ، ويأسِروننا كيف شاءوا » .

وهذا يعني أن نَصْرَ اللَّهِ عبادَه المسلمين ، تحقَّق في زمنٍ يسيرٍ جدًّا ، وفي جَوْلةٍ لا تقع في حُسْبان البشر ، مِمَّا يزيدُ المؤمنَ إيمانًا ويقينًا ، ويزيد الجاحدَ المغرورَ حِقدًا وغيظًا وألمًا .

فماذا كان من أمرِ هذه الغزوةِ المباركةِ التي عليها بُنِيَتْ أمَّةُ الإسلام ، وأُرسيت قواعدُ دولتِها ، والتي انتهت كذلك إلى رفْع الأعلامِ الحزينةِ المكتئبةِ على كلِّ دارٍ من دُورِ الذين خرَجوا لحربِ الرسولِ ﷺ ، وقد خلَّفت في كلِّ فؤادٍ جُرحًا لم يَنْدَمِلْ ، وأصابتْ كلَّ بيتٍ من أهلِ الشرك في أعزِّ بنيه ..

وليكونَ لنا في ذلك عظةٌ وعبرةٌ ، ولمن يعتبِرُ ..!

* * *

مقدمات بدر

علينا أن نعودَ بالحديثِ إلى أوَّلِه ، ونسيرَ مع القافلةِ من أوَّلِ الطَّريقِ : فقد وصلَتِ الأنباءُ إلى يثربَ أنَّ قافلةً كبيرةً لقريشٍ في طريقِها من الشامِ إلى مكَّةَ ، ومعها أموالٌ لقريشٍ ونفائسُ وتجارةٌ من تجاراتِهم محمولةٌ على نحوِ ألفِ بعيرٍ ، يقودُها أبو سفيانَ بنُ حربٍ ، يُعاونُه نحوُ أربعين رجلًا من قريشٍ .

لـمَّا سمِع رسولُ اللَّه ﷺ بأمرِ هذه القافلةِ مقبلةً من الشامِ دَعا المسلمين إلى الخروج إليها ، وقال لهم مبيِّنًا الغَرَض من هذا الخروجِ : « **هذه عيرُ قريشٍ ، فيها أموالُهم فاخرُجوا إليها ، لعلَّ اللَّه يُنَفِّلكُموها** » .

ولم يؤكِّدْ عليه السلامُ على أحدٍ بالخروجِ ، فأسرَع مَن أسرَع منهم ، وأبطَأ مَن أبطَأ ؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ ترَك الأمرَ للرغبةِ المُطلقةِ ، وكان الذين خرَجوا والذين تخلَّفوا يظنُّون أن الخروجَ إنَّما هو للعيرِ (قافلة التجارة) ، وأنَّ الرسولَ ﷺ

لن يَلْقى حربًا ، ولم يَرِدْ على خاطرِ أحدٍ أنَّ القلَّةَ التي خرَجت مع القائدِ الحبيبِ ﷺ سيُقدَّر لها أنْ تقومَ بأعظمِ الأعمالِ الحربيَّةِ شأنًا ، في تاريخِ الإسلامِ .

وخرَج الرسولُ ﷺ في ثلاثمائةٍ وأربعةَ عشرَ رجلًا مِن أصحابِه يومَ الاثنين لثمانٍ خَلَوْنَ من شهرِ رمضَانَ المباركِ في العام الثاني من الهجرةِ ، ولم يكنْ معهم سِوى فرسيْن وسبعين بعيرًا ، يتناوبُ على الواحدِ منها في الركوبِ الرجلان والثلاثةُ .

أخبارُ التجارةِ :

كان أبو سفيانَ بنُ حربٍ أحدَ دُهاةِ العربِ ، وكان يخشى أن تقعَ التِّجارةُ والأموالُ في أيدي المسلمين ، لهذا فإنَّه حين دنا من الحجازِ كان يسيرُ في حذرٍ تامٍّ ، ويُرسِل العيونَ أمامه يجمَعون له الأخبارَ ، وكان يتحسَّسها بنفسِه ، فيسألُ مَن لقِي من الرُّكْبانِ ، حتى أصاب خبرًا مِن بعض الرُّكبانِ : أن محمدًا - ﷺ - قد استنْفر أصحابَه للعير ولقائِدِها أبي سفيانَ ، فحذِر عندَ ذلك ، فاستأْجَرَ رجلًا اسمُه

ضَمْضَمُ بنُ عمرٍو الغِفارِيُّ ، فبعَثه إلى مكَّةَ ، وأمرَه أن يأتيَ قريشًا فيسْتَنفرَهم إلى أموالِهم لحمايتها ، ويُخبرَهم أن محمدًا قد عرَض لها في أصحابِه ؛ ليُبادِروا إليها ويُنقذُوها ، وقدِ اسْتطاع ضَمْضَمٌ أن يصِلَ سريعًا إلى مكةَ ، وأن يَستثيرَ حميَّةَ أهلِها : إذ قطَعَ أنفَ بعيرِه ، وحوَّل الرحْلَ ، وشَقَّ قميصَه على عادَةِ النَّذيرِ في الجاهليَّةِ ؛ ليثير القومَ للحرب ، ووقفَ يَصْرُخُ في بطنِ الوادي :

« يا معشرَ قريشٍ ، اللَّطيمةَ .. اللَّطيمةَ[1] ، أموالُكم مع أبي سفيانَ ، قد عَرَض لها محمدٌ وأصحابُه ، لا أرى أن تُدركوها .. الغوثَ .. الغوثَ ..» .

فزِعت قريشٌ للخبرِ ، وقام رؤساؤُها يحضُّون الناسَ على الخروجِ ، فتجهَّز الناسُ سراعًا ، وقالوا : أيظُنُّ محمدٌ وأصحابُه أن تكونَ كعيرِ ابنِ الحضْرميِّ[2] ، كلَّا واللَّه ،

(١) اللَّطيمة : العير التي تحمل المسك .

(٢) سبقت الإشارة إلى قصَّته فى ص (١٢) .

ليعلمُنَّ غيرَ ذلك .

وهذا التعبيرُ يؤكِّد غرورَهم بالكثرة والقوَّة ، لعلمهم بحال المسلمين .

جيشٌ ضخمٌ وإعدادٌ مُلفت :

وخرَجت قريشٌ كلُّها للحربِ ، ولم يتخلَّفْ مِن أشرافِها سِوى نفرٍ قليلٍ ، منهم أبو لهبٍ ، والذي تخلَّف استأجرَ محاربًا ليكونَ مكانَه ، وكان عددُ المحاربين نحوَ ألفِ رجلٍ ، معهم مائتا فرسٍ ، ومعهم المغنِّياتُ يَضْرِبْن بالدُّفوفِ ، ويغنِّين بهجاءِ المسلمين ، يُثْرِنَ حميةَ أهلِ مكةَ مِن المشركين .

أمَّا أبو سفيانَ فكان حَذِرًا غايةَ الحذرِ ، وكان يتحسَّس أخبارَ المسلمين بنفسِه ، حتى فهِم أنَّهم خرَجوا للقائِه ، وأنَّهم قريبون من بدرٍ ، فاجتنَب الطريقَ المُؤدِّيَ إليها ، وأخذَ بالعير جهةَ الساحلِ ، تاركًا بدرًا على يسارِه ، وانطلَق مُسرعًا حتى نجا من قبضةِ المسلمين .

* * *

إِرَادَةُ اللّٰه

لقد خرَج المسلمون من يثربَ يطلُبون العِيرَ ، وخرَج المشركون من مكَّةَ ليُنقذُوا العِيرَ ، وقد شاء اللَّه سبحانه وتعالى أن تنجوَ العِيرُ ، وأن تَفْلِتَ بسبب ذكاءِ أبي سفيان وبدَهائِه .

ورأى أبو سفيانَ أنه أنقَذ التجارةَ ، ونجا بالمالِ ، فأرسَل إلى قريشٍ يقولُ : « إنَّكم إنَّما خرَجتم لتمنَعوا عِيرَكم ورجالَكم وأموالَكم [أي للإنقاذ والحماية] ، فقد نجَّاها اللَّه فارجِعوا » .

ولكنَّ أبا جهلٍ ركِبَ رأسَه ، فأخذَ يَصيحُ في المشركين : « واللَّهِ لا نَرْجِعُ حتى نَرِدَ بدرًا ، فنُقيمَ عليه ثلاثًا ، فننحَرَ الجُزرَ ، ونُطْعِمَ الطعامَ ، ونسقيَ الخمرَ ، وتَعْزِفَ علينا القيانُ ، وتَسْمَعَ بنا العربُ وبمسيرِنا وجَمْعِنا ، فلا يزالون يهابونَنا أبدًا بعدَها ، فامْضُوا ..» وجعَل أبو جهلٍ يُحرِّضُ الناسَ على مواصلةِ السيرِ .

مَضت قريشٌ في طريقِها مستجيبةً لرأي أبي جهلٍ ما عدا بني زُهْرةَ [ومنهم أمُّ النبي ﷺ] ، فإنَّهم رجَعوا من الجُحْفَةِ [وهى ميقات أهل مصر ونحوهم] ، حينَ دعاهم إلى الرجوعِ الأخنَسُ بنُ شُريقٍ الثقفيُّ ، وكان مُطاعًا في العرب ، كما رجَع طالبُ بنُ أبي طالبٍ ، ومعه جماعةٌ من بني هاشمٍ ، ذلك أنَّ الفريقين لم يجدا وجهًا للاستجابةِ لنداءِ أبي جهلٍ وغُرورِه ، بعد أن نجَّى اللَّهُ لهم أموالَهم ، ورجالَهم .

وفي غُرورِ أبي جهلٍ وبَطَرِه وسوءِ نيَّتِه هو وأصحابُه ، يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ من سورةِ « الأنفالِ » : ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٤٧ ، ٤٨] .

سار المشركون حتى نزَلوا بالعُدوةِ القُصوى من وادي بدرٍ ، وكان المسلمون قد انتهَوْا من رحلتِهم الشاقَّةِ إلى العُدوةِ الدُّنيا .

وهكذا تمّت إرادةُ اللّه العُليا ، وحكمتُه الكُبرى في أنْ يَجْمَعَ بين الفريقَين على غيرِ موعدٍ ، وقد أخبرَ اللّه سبحانه أنَّهم لو تواعَدُوا لاختلَفوا في الميعادِ ، ولمَا تحقَّق لهم هذا اللِّقاءُ الدَّقيقُ العجيبُ .. فقال عزَّ وجلَّ : ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

إذن : فما الحكمةُ فيما أراده المولَى عزَّ وجلَّ للمسلمين ، ولماذا اختارَ سبحانه وتعالى لأوليائِه ، وهم قليلو العددِ ، أن يَلْقَوْا عدوَّهم ، مع أنَّه مُتَّخذٌ للحرب أُهبَتها ، فالعددُ كثيرٌ ، مع الإعدادِ الكافي بالعُدَّةِ والعتَادِ ؟ .

إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ أراد أن يتمَّ هذا اللِّقاءُ العجيبُ ، الذي اجتمَعت فيه كلُّ عواملِ النصرِ الماديَّةِ في جانبِ المشركين ، وظهرَت فيه لأَعيُنِ الناسِ كلُّ عواملِ الهزيمةِ في جانبِ المسلمين ..

أراد اللَّهُ ذلك ليكونَ في هذا اللِّقاءِ فرقانٌ بينَ الحقِّ والباطلِ ، وليعلَمَ المؤمنُ أنَّ هناك ميزانًا دقيقًا ينْبغي للناسِ أن يُقدِّروا به في كلِّ زمانٍ وكلِّ مكانٍ أسبابَ النَّصرِ والهزيمةِ في جَوهرِها وحقيقتِها ، لا في ظواهرِها ومادِّيَّاتِها فحَسْبُ .. فليستِ الكثرةُ غالبةً- دائمًا- لأنَّها كثرةٌ ، ولا القلَّةُ مهزومةً- دائمًا- لأنَّها قِلَّةٌ ، وليستِ العُدَّةُ وَحْدَها دائمًا هي دِعامةُ النَّصرِ في المعاركِ ، وإن كانت من الأسباب التي أمرنا اللَّهُ بإعدادها .

إنَّما أسبابُ نصرِ اللَّهِ عبادَهُ المسلِمين تَرْجِعُ أساسًا إلى :

- قُوَّةِ اليقينِ ، وصحَّةِ العقيدةِ ، وسَلامةِ الإيمانِ ، وحُسْنِ الظَّنِّ باللَّه عزَّ وجلَّ ، والثِّقةِ فيما وَعَد به عبادَه الموحِّدين ، وإخلاصِ الجهادِ للَّهِ .

- كما تَرْجِعُ إلى الصِّدقِ عندَ اللِّقاءِ ، والثباتِ في مواطنِ الخوفِ ، والصَّبرِ على البلاءِ ، والعزْمِ على بُلوغ الهدفِ ، وحُسْنِ التَّوكُّلِ على اللَّه عزَّ وجلَّ ، مع طلب ما عند اللَّه من النَّصر والخيرِ .

فإذا حقَّق المسلمون في أنفسِهم ذلك، وربَّوا أبناءَهم عليه، وخرَجوا للجهادِ، وهم على هذا النَّحوِ من اليقينِ والثِّقةِ، والصِّدقِ والإخْلاصِ للَّه عَزَّ وجَلَّ، فإنَّ اللَّه يُحقِّقُ لهم وَعْدَه الأزليَّ، ولنتدبَّرْ قولَ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

تِلْكُم هي مشيئةُ اللَّه عزَّ وجلَّ مع عبادِه في كلِّ عصرٍ وجيلٍ، وتلك إرادتُه الحكيمةُ حين يَلْتقي الإيمانُ والكفرُ في ساحاتِ النِّضالِ، وحين يُكشِّرُ الشِّركُ مُختالًا بعَدَده وعَتادِه للتوحيدِ النقيِّ الخالصِ ولأهله، وحين يُحاولُ الباطلُ أن يَصولَ على الحقِّ.

وإنَّنا حين نرجعُ إلى سِيَرِ الأنبياءِ ومَنْ نهَج نَهْجَهم نجدُ أنَّ النصرَ دائمًا يكونُ للعقيدةِ القويَّةِ الصالحةِ لا للسِّلاحِ والعَتادِ فحَسْبُ، وفي غزوةِ بدرٍ الكُبرى آيةُ الآياتِ على هذه

الحقيقةِ الخالدةِ .

ولْنَسْمَعْ قولَ الحقِّ تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ[(١)] أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ[(٢)] تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ[(٣)] ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال : ٧، ٨] .

إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ أراد أن تكونَ موقعةُ بدرٍ عظةً وعبرةً ودرسًا للمسلمين ؛ ليثبُتوا على الحقِّ دومًا ، ويتمسَّكوا به ، ويُنافِحوا دونَه ، متوكِّلين على اللّه سبحانَه وتعالى .

ومع الشَّجاعة والصَّبر والإقدام وحُسْنِ الإعدادِ يكون التَّواضُعُ لِلَّه ، والشُّكرُ لأَنْعُمِه ، والحمدُ له وحده على كلِّ حال .

---

(١) إحدى الطائفتين : العير أي قافلة الجِمَال المُحمَّلة المقبِلة مع أبي سفيان من الشام ، أو هؤلاء الذين نفروا : أي خرجوا من مكَّة لاستنقاذ العِير .

(٢) غير ذات الشَّوكة : أي التي لا قتال فيها وهي العِير والتجارة .

(٣) ويقطع دابر الكافرين : أي يجتثَّ أصلَ الجاحدين توحيدَ اللّه وقد تحقَّقت هزيمة قريش يوم بدر .

فُرَصٌ لِلسَّلامِ أَضَاعَهَا الكُفَّار

يقولُ الحقُّ تبارك وتعالى : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

[المائدة : ١٥، ١٦].

الإسلامُ دينُ السلامِ، ونبيُّ الإسلامِ هو نبيُّ الرحْمةِ ورسولُ البرِّ، بعَثه اللّه إلى البشرِ نورًا يُضيءُ للمُدْلجين المتخبِّطين في الظلامِ؛ ليُنْـقِذَهم من حَيْرتِهم، ويأخُذَ بأيدِيهم يَهْديهم إلى طريقٍ لا عوجَ فيه ولا انحرافَ، طريقِ الحقِّ والخيرِ والعدْلِ والرحمةِ والأمنِ.

لم يكنْ سبيلُ الإسلامِ الحربَ، ولم تكنْ غايةُ نبيِّ الإسلامِ إراقَةَ الدِّماءِ بغيرِ حَقٍّ، وإنَّما سبيلُه الدعوةُ إلى اللّه في رِفْقٍ وأناةٍ، وحِلْمٍ ولينٍ وإقناعٍ، بتقْديمِ الدَّليل الذي يَهدي العقلَ ويُرْشِدُه، ويُنيرُ أمامَه السبيلَ. ولْنَسْمَعْ قولَ

الحقِّ تبارك وتعالى : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ[١] بِٱلْحِكْمَةِ[٢] وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ[٣] وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾

[النحل : ١٢٥] .

ومَن سالَم ولم يَعْتَدِ على حقٍّ من حُقوقِ المسلمين ، ولم يظلمِ النَّاسَ ويبطشْ بهم ، عاشَ في ظلالِ عدالةِ الإسلام آمنًا مطمئنًّا .. يقولُ اللَّه عزَّ وجلَّ : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ[٤] وَتُقْسِطُوٓا۟[٥] إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] .

وفي صَدْرِ الإسلامِ في مكَّة المكرَّمةِ ، صبرَ المسلِمون على الآلامِ ، وعلى أذَى قُريشٍ أكثرَ من ثلاثةَ عَشَرَ عامًا ، ولم

---

(١) إلى سبيل ربِّك : إلى شريعة ربك ودين الإسلام الذي ارتضاه للنَّاس أجمعين .

(٢) بالحكمة : بوحي اللَّه الذي يُوحيه إليك .

(٣) الموعظة الحسنة : بالعِبرة الجميلة والبراهين السَّاطعة التي جعلها اللَّه في كتابه المُنزل .

(٤) أن تبرُّوهم : تَصِلوهم .

(٥) تُقسطوا : تَعدلوا .

يُقابِلوا السيِّئةَ بمثلِها ، وكان العدوُّ سادرًا في غيِّه ، ماضيًا في تَنْفيذِ مُخطَّطِه ، مُتجاوزًا كلَّ حَدٍّ في محاربةِ الحقِّ وأهلِه ، فأذِن اللَّه للمؤمنين بقتالِ مَن يُقاتِلُهم .

يقولُ اللَّه تعالى : ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

وكانت البدايةُ من المشركين :

وفي غَزْوةِ بدرٍ لم يبدأ المسلمون بالعُدْوانِ ، بل ظلُّوا في أماكِنهم حيث أمرَهم رسولُ اللَّه ﷺ مستعدِّين لكلِّ مُفاجأةٍ .

وفي الوقتِ نفسِه لاحتْ أمامَ المشركين فُرصٌ كثيرةٌ لحقنِ الدِّماءِ ، ولكنَّهم رفَضوها وأصرُّوا على العُدْوانِ .

– فقد طلَب إليهم أبو سفيانَ العودةَ إلى مكَّةَ بعدَ نجاةِ التِّجارةِ ، ولكنَّ أبا جهلٍ أصرَّ على القيامِ بالمظاهرةِ المُسلَّحةِ عندَ بدرٍ ؛ ليُرْهِبَ المسلمين ، ويملأَ نفوسَ العربِ هيبةً على حَدِّ قولِه .

- وأراد بنو هاشمِ الرجوعَ إلى مكّةَ بعد نَجاةِ التِّجارةِ ، ولكنَّ أبا جهلٍ أصرَّ على بقائِهم ، وقال : « لا تُفارقُنا هذه العصابةُ حتى نَرْجِعَ » .

- وأكثرُ مِن هذا أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ بَسَط لهم يدَه ، طالبًا السلامَ لكي يُعْذِرَ إليهم مِن نفسِه ، فأرسَل عمرَ بنَ الخطَّابِ رضِي اللَّه عنه يقولُ لهم : « ارجِعوا ، فإنه أَنْ يَلِيَ هذا الأمرَ منِّي غيرُكم ، أحبُّ إليَّ مِن أن تَلُوه مني » . فلمَّا سمِعوا رِسالةَ رسولِ اللَّه ﷺ على لسانِ عمرَ ، قال حَكيمُ بنُ حِزامٍ : « قد عرَض واللَّهِ نَصَفًا [عدْلًا] فاقْبَلوه » ، ومالَ بعضُ القوم إلى السلامِ ، ولكنَّ أبا جهلٍ أثارَها فتنةً حَمْقاءَ ضيَّعته وضيَّعت سبعينَ من زعماءِ القومِ معه .

- وحانت فرصةٌ أُخرى للسَّلامِ حينَ قام عُتْبَةُ بنُ ربيعةَ يطلُبُ إلى مشركي قريشٍ أن يعودوا إلى مكَّةَ المكرَّمةِ ، ولا داعيَ للحربِ ، ونقَل حَكيمُ بنُ حِزامٍ رأيَ عتبةَ إلى أبي جهلٍ ، فغضِبَ وتهكَّمَ بعُتبةَ ، واتَّهمه بالجُبنِ والخوفِ على ابنٍ له كان حينئذٍ مسلمًا ، وقال عن عُتبةَ : « انتفَخ واللَّهِ

سَحْرُه- أي أصابَه ذُعرٌ شديدٌ- حينَ رأى محمدًا وأصحابَه ، كلَّا واللَّهِ ، لا نَرْجِعُ حتى يَحْكُمَ اللَّه بيننَا وبينَ محمدٍ » .

- وبلَغت رحمةُ رسولِ اللَّه ﷺ قِمَّتَها حين أقبلَ نفرٌ من قريشٍ فيهم حَكيمُ بنُ حزامٍ يُريدون حَوْضَ رسولِ اللَّه ﷺ يَرْغبُون في الماءِ والسُّقْيا ، فقال الرسولُ ﷺ لأصحابِه : « **دَعُوهم** » فتركَهم المسلمون يَشْرَبون ، ثم انصرَفوا سالِمين .

شَرارةُ الحربِ :

رأينا صورًا كريمةً من صُورِ الحِلْمِ النبويِّ والرحمةِ المُهداةِ ، وبعدَ هذه الأناةِ والفُرصِ التي أُتيحت للسلامِ وحَقْنِ الدِّماءِ وأضَاعها المشركون بَدأتِ الشَّرارةُ الأُولَى تتطايرُ مِن صُفوفِ الكفَّار مُؤْذِنةً بما ليس منه بدٌّ ، ما دام الحِقدُ يَغلي في صُدورِهم ، ويَدْفَعُهم إلى الصَّدِّ عن سبيلِ اللَّه .

لقد كان في صُفوفِ المشركين رجلٌ شَرِسٌ سيِّئُ الخُلقِ اسمُه الأسودُ بنُ عبدِ الأسدِ المخزوميُّ ، خرَج يتحدَّى المسلمين ويقولُ : « أُعاهِدُ اللَّه لأشْربنَّ مِن حَوْضِهم أوْ

لأهْدِمنَّه ، أو لأموتَنَّ دُونَه » ، فكانت تلك هي الشرارةَ الأولى ، فالمسلمون حينَ رأَوْه على هذا التحدِّي السافرِ خرَج إليه حَمْزةُ ابنُ عبدِ المطلبِ رضِي اللَّه عنه ، فلمَّا التقيا ضرَبه حمزةُ فأطار قدَمَه بنصْفِ ساقِه ، وهو دونَ الحوضِ ، فوقَع على الأرضِ ورِجلُه تسيلُ دمًا ، وعلى الرغمِ مِن ذلك أخَذَ يحبُو نحوَ الحوضِ ، متحدِّيًا مُصرًّا على الوفاءِ بقَسَمِه ، حتى اقتحَم الحوضَ ، ولكنَّ حمزةَ عاجَلَه بالضَّربةِ القاضيةِ ، فأهلَكه .

المبارزةُ :

واندَلعت بعد ذلك شراراتٌ أُخَرُ ، فقد خرَج عتبةُ بنُ ربيعةَ بينَ أخيه شيبةَ بنِ ربيعةَ وابنِه الوليدِ بنِ عُتبةَ ، وحينَ برَز دعا المسلمين إلى المبارزةِ ونادَى :

« يا محمدُ أَخْرِجْ إلينا أكْفاءَنا من قومِنا » .

فقال رسولُ اللَّه ﷺ : « **قُمْ يا عبيدةُ بنَ الحارثِ ، وقُمْ يا حمزةُ ، وقُمْ يا عليُّ** » ، فلمَّا قاموا ، ودَنَوا منهم ، قالوا : مَن أنتم ؟ فأجابُوهم بأسمائِهم ، فقال عتبةُ : نعم أكْفاءٌ كرامٌ ،

فبارز عبيدةُ عتبةَ بنَ ربيعةَ ، وبارز حمزةُ شيبةَ بنَ ربيعةَ ، وبارز عليٌّ الوليدَ بنَ عُتبةَ ، وبعدَ الجَولَةِ هلَكَ الكفارُ الثلاثةُ مُصِرِّين على ما هم عليه ، وحمَل عليٌّ وحمزةُ رضِي اللّه عنهما صاحبَهما عُبَيدةَ بنَ الحارثِ جريحًا مقطوعَ الرِّجلِ ، فلمَّا أَتوْا رسولَ اللّه ﷺ ، قال عبيدةُ : ألستُ شهيدًا يا رسولَ اللّه ؟ قال : « **بلَى** » .

وهكذا بَدَأ الكفارُ بإشعالِ نارِ الحربِ بأيديهم ، وفتنَتْهم كَثْرتُهم وعُدَّتُهم ، ودفعَت بهم كبرياءُ الجاهليَّةِ إلى حُتوفِهم ؛ لأنَّ المسلمين حين رأَوا منهمُ الخُيلاءَ والإعجابَ والتحدِّيَ ، هُرعوا إلى استِرواحِ نعيمِ الجنةِ تحتَ ظِلالِ السيوفِ ، وبَرزُوا للقتالِ متوكِّلين علَى اللّه ، طالِبين مَرضاتَه ، مجاهِدين لنَصْرِ دينِه ، مُدافعين عن الحقِّ ، راغِبين في الشهادةِ .

وكان يومُ الفرقانِ ، يومُ بدرٍ الكُبرى الخالدةِ .

فهل نتدبَّر ، ونعتبر ، ونقتدي بأطهرِ وأكرمِ نبيٍّ ، وبأصحابه صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه وعلى آله وصحبِه .

المسلمون والمعركة

يحسُنُ بنا أن نعيشَ مع المسلمين في جوِّ يوم الفُرقانِ ، كما ينبغي لنا أن نُطيلَ التأمُّلَ في بعضِ مواقفِهم ومسالِكِهم وانقيادِهم لنتَّخِذَ منها عبرةً تَهدينا إلى سواءِ السبيلِ ، ولهذا سوف نعودُ في رحلتِنا هذه لنعيشَ معهم منذ خُروجِهم من يَثْربَ وانفصالِهم عنها :

البداية :

بعدَ أنْ خرَج النبيُّ ﷺ من المدينةِ المنورةِ على ساكِنها أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم ضَرَب عسكرَه على مسافةِ مِيلٍ ، وأخَذَ يَعْرِضُ جُنْدَه ، ليردَّ صغارَ السِّنِّ إلى ذَوِيهم .

فلمَّا أحسَّ مَنْ هم دونَ البُلوغِ بذلك ، اشتدَّ شَوْقُهم للبقاءِ مع جندِ اللَّه ، وتحتَ قيادةِ الهَادي الحبيبِ ﷺ في تلك الرِّحلةِ التي ندَب إليها القائدُ عليه السلامُ دون أن يُكرِهَ أحدًا على الخروجِ ، وكان أملُهم أن يَلْقَوا عدوَّهم وينالُوا الشهادةَ التي تعطَّشَتْ نفوسُهم إليها .

ولْنَسْمَعْ سعدَ بنَ أبي وَقَّاصٍ يقولُ عن أخٍ له : رأيتُ أخي عُميرَ بنَ أبي وقَّاصٍ قبلَ أن يَعْرِضَنا رسولُ اللَّه ﷺ يتوارى ، فقلتُ له : ما لك يا أخي ؟ قال : « إنِّي أخافُ أن يراني رسولُ اللَّه ﷺ فيستصْغِرَني ، ويرُدَّني ، وأنا أُحبُّ الخروجَ لعلَّ اللَّهَ يرزُقُني الشَّهادةَ » .

على هذا النحوِ كانتْ تربيةُ الصَّفْوةِ الصَّافيةِ مِن أصحابِ رسولِ اللَّه ﷺ ، وبهؤلاء المؤمنين الصادقين مَكَّن اللَّه لدينِه في الأرضِ .

فلمَّا رآه رسولُ اللَّه ﷺ استَصْغَره فقال له : « ارجِعْ » ، فبكَى عُمَيرٌ ، بكَى الشابُّ الصغيرُ ، وأصرَّ فأجازه الرسولُ ﷺ ، وتحقَّق أملُه فنال الشهادةَ ببدرٍ ، وهو ابنُ ستَّ عشْرَةَ سنةً .

ومضَى رسولُ اللَّه ﷺ بأصحابِه حتى وصَل إلى وادي الذَّفرانِ ، فنزَل ، وهناك جاءه الخبرُ عن قريشٍ ، بأنَّهم قد خرَجوا ليمنَعوا عِيرَهم ، فأخْبَرَ النبيُّ ﷺ أصحابَه ، وأخَذَ يَسْتشيرُهم في الأمرِ ، فتحدَّثَ أبو بكرٍ رضي اللَّه عنه وحثَّ

على الجهادِ ، ثم تحدَّثَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي اللّه عنه فأحسن .

ثم قام المقْدادُ بنُ عمرٍو فقال : « يا رسولَ اللّه ، امْضِ لِمَا أراك اللّهُ ، فنحن معك ، واللّهِ ، لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيلَ لموسَى : اذْهَبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنَّا هاهنا قاعدون ، ولكنِ اذْهَبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنَّا معكما مُقاتِلون ، فوالذي بعَثَك بالحقِّ لو سِرْتَ بنا إلى بَرْكِ الغَمادِ- موضعٌ بناحيةِ اليمنِ- لجالَدْنا معك مَنْ دونه حتى تَبْلُغَه » .

فقال له رسولُ اللّه ﷺ خيرًا ودَعا له به ، ثم قال رسولُ اللّه ﷺ : « **أشِيروا عليَّ أيُّها الناسُ** » . يُريد بذلك أن يَسْمَعَ رأيَ الأنصارِ ، وكانوا قد عاهَدوا رسولَ اللّه في بيعةِ العقبةِ على أن يمنَعُوه - يَحْمُوه - في ديارِهم ، فكان الرسولُ ﷺ يتخوَّفُ ألَّا تكونَ الأنصارُ ترى عليهم نَصْرَه إلَّا مِمَّن دهَمه في المدينةِ من عدوِّه ، وأن ليس عَلَيهم أنْ يَسيرَ بهم إلى عدوٍّ خارجَ بلادِهم ، فلمَّا قال الرسولُ ﷺ ذلك ، قال له سعدُ بنُ مُعاذٍ :

« واللَّه لكأنَّك تُريدنا يا رسولَ اللَّه ؟ فقال : « **أجَلْ** » ، قال : فقد آمنَّا بك وصدَّقناك ، وشهِدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ ، وأعْطَيناك على ذلك عُهودَنا ومَواثيقَنا على السَّمْعِ والطاعةِ ، فامْضِ يا رسولَ اللَّه لِمَا أرَدْتَ ، فنحنُ معك ، فوالذي بعَثك بالحقِّ لو استعَرضْتَ بنا هذا البحرَ فخُضْتَه لخُضناه معك ، ما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ ، وما نَكْرَهُ أن تلْقَى بنا عدوَّنا غدًا ، إنّا لصُبُرٌ في الحربِ ، صُدُقٌ عند اللِّقاءِ ، لعلَّ اللَّه يُريك منا ما تقَرُّ به عينُكَ ، فسِرْ على بَركةِ اللَّه » .

لمَّا سمِع رسولُ اللَّه ﷺ مقالةَ سعدٍ سُرَّ لها ، وانبسَط وَجْهُه ، وقال : « **سِيروا على بَركةِ اللَّه وأبشِروا ، فإنَّ اللَّه وَعَدني إحْدى الطَّائفتين ، واللَّهِ لكأنِّي أنظُرُ إلى مَصارِعِ القومِ** » .

وكانت تلك الشُّورى هي بدايةَ الاستعدادِ النَّفسيِّ لخوضِ معركةٍ مع أهلِ الباطلِ ، إنْ هم أصرُّوا على العُدْوانِ ، وقد كشَفَتْ هذه الشورَى للنبيِّ ﷺ عن مَعادِنَ طيِّبةٍ ، باعَتْ دُنياها رغبةً في ثوابِ ربِّها ، وطلبًا لمرضاته ، ووطَّنت أنْفُسَها على الجهادِ والتَّضحيةِ في سبيلِ اللَّه ، ولإعلاءِ كَلمةِ

اللَّه ، وبناءِ دولةِ التَّوحيدِ النقيِّ الخالصِ من كلِّ شائبةٍ من شَوائبِ الشِّركِ .

ثم سار المسلمون بعدَ ذلك حتى نزَلوا في أدنى ماءِ بدرٍ ، وكان الجميعُ في حالةٍ نَفْسيَّةٍ رائعةٍ ، على الرغْمِ من أنَّهم خرَجوا من المدينةِ المنورةِ وليس في نيَّتِهم أمرُ الحربِ .

صُوَرٌ من البطولةِ :

وتتجلَّى بطولاتُ المؤمنين ، ويَظْهَرُ الإخلاصُ والتجرُّدُ للغايةِ الساميةِ ، والتَّفاني في سبيلِ نُصرةِ الحقِّ ، يَظْهَرُ ذلك حين تزاحَفَ الجمْعان ، إيذانًا ببدءِ القتالِ ..

فقد خرَج رسولُ اللَّه ﷺ إلى المسلمين يُحَرِّضُهم قائلًا :

« **والذي نفسُ محمدٍ بيدِه ، لا يُقاتِلُهم اليومَ رجلٌ فيقتلَ صابرًا مُحتسبًا ، مُقبلًا غيرَ مُدْبِرٍ إلَّا أدْخَلَه اللَّه الجنةَ** » .

وكان لهذا التحريضِ أثَرُه في النفوسِ ، فقدِ ازْداد شَوْقُ المؤمنين للشَّهادةِ ، فاندَفعوا كالسُّيولِ لا يَقِفُ دُونَها شيءٌ ،

وهم يهتِفُون باسمِ اللَّه وَحْدَه ، وكان نَشِيدُهم العَذْبُ وهم يتصيَّدون رؤوسَ الكفرِ وَسْطَ الجموعِ الزاحفةِ :

يا منصورُ أمِتْ أمِتْ .. يا منصورُ أَمِتْ أمِتْ ..

يا منصورُ أمِتْ أمِتْ .. يا منصورُ أَمِتْ أمِتْ ..

وهَبَّت عليهم رياحُ الجنَّةِ ، فاستَعْجلوا الموتَ في سبيلِها ، حتى أنَّ عُمَيْرَ بنَ الحُمَامِ- حينَ سمِع مقالةَ الرسولِ ﷺ- صاح قائلًا : « بَخٍ بَخٍ[1] أفما بيني وبينَ أن أدخُلَ الجنةَ إلَّا أن يقتُلَني هؤلاءِ؟ ثم رَمَى من يدِه تَمَراتٍ كان يأكُلُ منها ، وقال : لئن أنا حَيِيتُ حتى آكُل تَمَرَاتي هذه إنَّها لحياةٌ طويلةٌ » .

واندَفع إلى ساحةِ الشرفِ والجهادِ ، وهو يقولُ :

رَكْضًا إلى اللَّه بغيرِ زادِ

إلَّا التُّقَى وعَمَلَ المَعَادِ

والصَّبْرَ في اللَّه على الجهادِ

---

(١) كلمة إعجاب .

وكــلُّ زادٍ عُرضـةُ النَّفادِ
غيـرَ التُّقَى والبِرِّ والرَّشـادِ

وقاتَلَ رضِي اللَّه عنه القومَ حتى لَقِي ربَّه شهيدًا .. - رضِي اللَّه عنه- ؟

وهذا عوفُ بنُ الحارثِ ، يسألُ رسولَ اللَّه ﷺ : عَمَّا يُضحِكُ الرَّبَّ من عبدِه - أي عن الأمرِ الذي يُرضِيه سبحانه غاية الرِّضا - قال ﷺ : « **غمْسُه يَدَهُ في العدوِّ حاسرًا** » فنزَع عوفٌ دِرْعًا كانت عليه ، فقَذَفها ، ثم أخَذَ سَيْفًا فقاتَلَ القومَ ، حتى استُشْهِد ، رضِي اللَّه عنه .

* * *

القيادةُ الرَّائدةُ :

وفي مَيْدانِ القتالِ كان القائدُ الحبيبُ ﷺ يُقاتِلُ أشدَّ القتالِ ، والمسلمون معه يَشْتَدُّون نحوَ العدوِّ ، ويُنزِلون به الخسائرَ حتى أصاب الهلَعُ والاضْطِرابُ نُفوسَ المشركين المُتغطرسين ، وزُلزلوا زِلزالًا شديدًا ، وسَيْطَر الذُّعْرُ على قُلوبِهم .

أبو جهل والغُرور القاتل :

وحاوَلَ أبو جهلٍ أمامَ هذه القوةِ الرُّوحيةِ أن يُوقِفَ سَيْلَ الهزيـمةِ النازلَ بالمشركين، وصَرَخ في قومِه ؛ ليُعيدَ إليهم صَوابَهم، ودَعاهم ليَلْتَفُّوا حولَه، فأسْرعت إليه الفُلولُ المهزومةُ، وهم يقولُون : « أبو الحكَمِ لا يُخْلَصُ إليه »، وشاءتِ الأقدارُ أن تكونَ مَنِيَّةُ أبي جهلٍ ونهايتُه في الدُّنيا قد دَنت في هذه اللَّحظاتِ، والمشركون يظنُّون أنَّ أحدًا لا يَسْتَطِيعُ أنْ يصلَ إليه :

فتيةٌ آمنوا وصدَقوا :

قال عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ رضِي اللَّه عنه : « إنَّني لفي الصفِّ يومَ بدرٍ، إذِ التَفَتُّ، فإذا عن يـميني وعن يساري فَتَيَان حديثا السِّنِّ، فكأنِّي لم آمَنْ بـمكانِهما، إذ قال لي أحدُهما سِرًّا مِن صاحبِه : يا عمِّ، أرِني أبا جَهْلٍ، فقلتُ : يابنَ أخي، ما تَصْنَعُ به ؟ قال : عاهَدْتُ اللَّهَ إن رأيتُه أن أقتُلَه أو أموتَ دُونَه، وقال لي الآخرُ سِرًّا من صاحِبه مثلَه ».

يقولُ عبدُ الرحمنِ : « فما سرَّني أن أكونَ بينَ رُجَلين

مكانَهما ، فأشَرْتُ لهما إلى أبي جَهْلٍ فشدَّا عليه مثلَ الصَّقْرين ، فضَرَباه حتى صَرَعاه » .

وسَقَط رأسُ اللُّؤم :

ويقولُ معاذُ بنُ عمرِو بنِ الجَمُوح : إنَّه رأى أبا جهلٍ وحولَه رجالٌ كأنَّهم شَجَرٌ مُلتفٌّ حولَه ، وهم يقولون : « أبو الحكم لا يُخْلَصُ إليه » ، قال : فسمِعْتُها فجَعَلْتُه من شأني ، ثم يقولُ : « فقَصَدْتُه ، فحَمَلْتُ عليه ، فضَرَبْتُه ضَرْبةً أطارت قَدَمَه بنصفِ ساقِه » ، قال : وضَرَبني ابنُه عكرمةُ على عاتقي ، فطرَح يدي ، فتعلَّقَتْ بجلدةٍ من جَنْبي ، وأجهَضَني القتالُ عنه – أي غَلَبني وشغَلني واشتدَّ عليَّ – فلقد قاتَلْتُ عامَّةَ يومي وإنِّي لأسحبُها خلْفي ، فلمَّا آذتْني ، وَضَعْتُ قَدَمِي عليها ، ثم تـمَطَّيْتُ بها عليها حتى طَرَحْتُها .

ومعاذٌ هو أحدُ الشَّابَّيْن اللَّذين صَرَعا أبا جهلٍ ، والآخرُ هو مُعوِّذُ ابنُ عَفْراءَ الذي وَجَد أبا جهلٍ عَقيرًا فضَرَبه حتى أثْبَته– أي جَعَله لا يَسْتَطِيعُ الحِراكَ– وتَرَكه وفيه رَمَقٌ .

ثم مَرَّ به عبدُ اللَّه بنُ مسعودٍ رضي اللَّه عنه فوَجَده بآخرِ

رَمَقٍ فوضَع رِجْلَه على عُنُقِه، وقال له: «هل أخْزاك اللَّهُ يا عدوَّ اللَّه؟»، فقال أبو جهلٍ: «أخْبِرْني لـمنِ الدائرةُ اليومَ؟» فقال عبدُ اللَّه: «لِلَّهِ ورسولِه»، ثم احتزَّ رأسَه، وذهب ينْقُلُ خبرَه إلى رسولِ اللَّه ﷺ فحمدَ اللَّه عزَّ وجلَّ.

وسَقَط رأسُ اللُّؤمِ والشَّرِّ أبو جهلٍ، وبَدأت بشائرُ النَّصرِ تَلوحُ أمامَ المسلمين، فهُم يَرَون جُنْدَ الباطلِ يُسلِمون سِيقانَهم للرِّيحِ، ويتطايرون في الصَّحْراءِ كما تتطايَرُ الأتربةُ مع العاصفةِ.

* * *

وبفضلٍ مِن اللَّه لقِيَ سَبْعون مِن رؤوسِ الفتنةِ والفسادِ من جَبَّاري مكَّةَ مَصْرَعَهم على أيدي الصَّفْوةِ المؤمنةِ مِن أصحابِ رسولِ اللَّه ﷺ، ووَقعَ سَبْعون آخرون أسْرَى في أيدي المسلمين، وفَرَّ الباقون من جَيْشِ الباطلِ يَحْمِلون عارَ الهزيمةِ، والذُّعْرُ في قلوبهم.

تِلكُم بعضُ النَّماذجِ الطيِّبةِ لمواقفِ هؤلاء الصَّفْوةِ من أصْحابِ رسولِ اللَّه ﷺ، وهم قومٌ عاشُوا لرسالتِهم، وأفْنَوا

أعمارَهم مُجاهِدين في سبيل الحقِّ الذي آمَنُوا به ، وباعُوا أنفُسَهم لنُصْرتِه ، فلم يَشْغَلْهم العرَضُ القريبُ عن الغايةِ التي وطَّنوا أنفسَهم من أجلِها .

وتلك الغايةُ الشريفةُ كانت : رحمةً للنَّاس وعدلًا وأمنًا ، وبرًّا وسلامًا ، وهي : أن يحمُوا عَقيدةَ التَّوحيدِ النقيِّ الخالصِ ، وأن يُرْفِرفَ عَلَمُ الإسلامِ على رُبُوعِ الدنيا ، فيَنْعَمَ الناسُ بمبادئِه الساميةِ ، وبأحْكامِه العادلةِ الرحيمةِ ، ويستِقرَّ على الأرضِ السلامُ ، وتزولَ من دُنيا البشرِ فوارقُ الحسَبِ والنَّسَبِ والجاهِ والجِنسِ ، ليحِلَّ مَحِلَّها التآخي الكريمُ ، والمساواةُ الحقَّةُ ، ولُحمةُ العقيدةِ ، وصلةُ الإيمانِ ، ولتُصانَ حقوقُ جميع الناس ، في أن يعيشوا آمِنين على معابدهم ، وعباداتهم ، وأرواحهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، مع حُرِّيَّة العمل والكسب والمشاركة في بناء الأمَّة .

* * *

وَيتوالى النصرُ من اللهِ

لقد جَرَتْ سُنَّةُ اللّه عزَّ وجلَّ مع الأُمم التي سَلَفت وكذَّبت أنبياءَها، وقاوَمَت دَعواتِ الحقِّ، وعذَّبتِ المؤمنين، ونالت مِن رُسلِ اللّه أن يُعاقِبَها اللّهُ سبحانه وتعالى بالعقابِ الملائمِ لجرائِمها، ومن ذلك:

- أهْلَكَ اللّهُ سبحانه قومَ نوحٍ بالطُّوفانِ.

- وأهْلَك عادًا بالدَّبُورِ، وثمودَ بالصَّيحةِ، وقَوْمَ لُوطٍ بالخسْفِ وبحجارةِ السِّجِّيلِ.

- وأهْلَك قومَ شُعيبٍ بيومِ الظُّلةِ التي كتمتْ أنفاسَهم، وأهلك فِرْعونَ وجُندَه بالغَرَقِ في اليَمِّ..

ثم أنزلَ اللّهُ تعالى التَّوارةَ على رسوله الكريم موسى بن عمران عليه السلام، وشرَع فيها قتالَ الكفَّارِ، واستمرَّ الحُكمُ إلى شريعةِ الإسلامِ.

* * *

ونحن حين نتأمَّلُ نجِد أن قَتْلَ المؤمنين للكافرين،

المُتغطرسين الجبَّارين المُعتدين والطَّامعين، أشدُّ إهانةً لهؤلاء الجبَّارين، وأشْفَى لصُدورِ المؤمنين، ولنتدبَّرْ قولَ الحقِّ تبارَكَ وتعالىَ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

ولذا فقد كان قتلُ رؤوسِ الفتنةِ مِن كُفَّارِ قريشٍ بأيدي المسلمين أشدَّ إيلامًا لأهْلِ الكفرِ، وأَوْجَع لقُلوبهم، وقد قرَّت به أعْيُن المسلمين.

* * *

يا بلالُ يا حبيبَ الرَّحمن:

ولْنَذْكُرْ دون نسيان أنَّ أميَّةَ بنَ خَلَفٍ العنيد القاسيَ هو الذي كان يُخرِجُ بلالَ بنَ رباحٍ الحبَشِيَّ إلى الرملِ الحارِّ ساعةَ الظهيرةِ فَيُضْجِعُه على ظَهْرِه، ثم يأمُرُ بالصخْرة العظيمةِ فتُوضَعُ على صَدْرِه، ثم يقولُ: لا تزالُ هكذا يا بلالُ أو تُفارقُ دينَ محمدٍ، فيقولُ بلالُ الهادئُ الوقورُ: **أحَدٌ أحَدٌ. أحَدٌ أحَدٌ.**

ثم جاء يومُ بدرٍ ورأى بلالٌ أميَّةَ بنَ خَلَفٍ في يدِ عبدِ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ فصرَخ بأعلَى صوتِه : يا أنْصارَ اللَّه ، رأسُ الكُفرِ ، أميَّةُ بنُ خلَفٍ ، لا نجوتُ إن نَجَا ، فأسْرَع المسلمون إليه ، وأعْمَلوا سُيوفَهم في أميَّةَ ، وفي ولدِه عليٌّ حتَّى قَضَوْا عليهما .

فأيُّ سعادةٍ تلك التي أثْلَجَت صَدْرَ بلالٍ ، رضِي اللَّه عنه ، إذ مكَّنه ربُّه من عدوِّ اللَّه ، الذي عذَّبه ، وشوَى جَسَدَه على الرمالِ المُحرقةِ ، وأطال في إهانتِه ليفتِنَه عن الدِّينِ الحقِّ .

ولا شَكَّ - أيضًا - أن مَصْرَعَ أبي جهلٍ على يدِ شابَّيـن في مُقْتَبل العُمرِ تُعَدُّ أشدَّ إهانةً له من هلاكِه على فراشِه ، وأبو جهلٍ هذا كان يَسْتهِينُ بعبدِ اللَّه بنِ مسعودٍ رضِي اللَّه عنه لفقرِه وضَعْفِه ، وكان يَقْبِضُ عليه في مكَّةَ ويُؤذيه ، فمكَّن اللَّهُ عبدَ اللَّه بنَ مسعودٍ من أن يَضَعَ قَدَمَه على عُنقِ أبي جهلٍ ، وأن يُجْهِزَ عليه ، وكان قد بقِي فيه رَمَقٌ .

* * *

وإنَّ المؤمنين إذا أخلَصوا نيَّاتِهم للَّهِ ، وفوَّضوا أُمورَهم إليه ، وأحسَنوا التوكُّلَ عليه ، وصدَق عزمُهم ، فإنَّه سبحانَه وتعالى يُمدُّهم بنصرِه ويُؤيِّدُهم ، ويجعلُ مِن قلَّتِهم كثرةً ، ومن ضعفِهم قوةً ، وجَعَل لهمُ الغلبةَ على أعدائِهم .

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر : ٥١] .

* * *

فماذا كان مِن التَّأييدِ الإلهيِّ لجندِ اللَّه في الأرضِ في يوم الفُرقان ، يومَ التقى الجمْعان ؟ .

الاستغاثةُ باللَّه وحده :

حدَّث عمرُ بنُ الخطَّابِ رضِي اللَّه عنه قال : « لمَّا كان يومُ بدرٍ نظَر النبيُّ ﷺ إلى أصحابِه وهم ثلاثُمائةٍ ونَيِّفٌ ، ونظَر إلى المشركين ، وهم نحوُ ألفٍ ، فاستقْبلَ نبيُّ اللَّه ﷺ القبلةَ ، ثم مَدَّ يديْه ، فجعَل يهتِفُ بربِّه :

« **اللَّهمَّ أنشُدُك عهدَك ووعدَك ، اللَّهمَّ إن تَهْلِكْ هذه العصابةُ من أهل الإسلامِ لا تُعبدْ في الأرضِ ... اللَّهمَّ نصرَك الذي**

وَعَدْتني ، اللَّهمَّ أرْعِبْ قلوبَهم وزَلْزِلْ أقدامَهم » .

فما زال يستغيثُ ربَّه مادًّا يَدَيه مستقبلَ القبلةِ ، حتى سقَط رداؤُه عن مَنْكِبَيْه ، فأتاه أبو بكرٍ فأخَذَ رداءَه ، فألقاه على مَنْكِبيه ، ثم الْتَزمه من ورائِه ، وقال له : يا نبيَّ اللَّه ، كَفَاك مُناشَدَتُك ربَّك ، فإنه سيُنجزُ لك ما وَعَدك ، فأنزل اللَّه تعالى مِن سورةِ « الأنفالِ » : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال : ٩، ١٠] .

* * *

ونزلتْ ملائكةُ الرَّحمن :

فأمدَّ اللَّه نبيَّه ﷺ بالملائكةِ لتَسْكينِ قُلوبِ المؤمنين ، ولتشجيعِهم ، ولتَثْبيتِ أقدامِهم ؛ ذلك لأَنَّ المؤمنين صَبَروا يوم بدرٍ ، وفوَّضوا أمْرَهم للَّهِ وحْدَه ، واتَّقَوْه .

وقال بعضُ المفسِّرين : « إنَّ اللَّه تعالى جَعَل أولئك

الملائكةَ مُجاهِدين إلى يوم القيامةِ ، فكلُّ عَسْكَرِ مؤمنٍ صَبَرَ واحْتَسَب ، تأتيهم الملائكةُ ، ويُقاتِلون معهم .

* * *

والنَّصرُ من اللَّه وحده :

ومِمَّا ينبغي الالتفاتُ إليه أنَّ نُزولَ الملائكةِ سَبَبٌ من أسبابِ النَّصرِ لا يَحْتاجُ إليه اللَّهُ تعالى ، وإنَّما يحتاجُ إليه المخلوقُ ، فلْيُعلِّقِ المؤمنُ قلبَه باللَّه ، وليتَّق رَبَّه ، فهو سبحانه النَّاصرُ بسببٍ وبغيرِ سببٍ : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] .

ولنتدبَّرْ قولَ الحقِّ تبارك وتعالى : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال : ١٢] .

فالنصرُ أوَّلًا وأخيرًا مِن عندِ اللَّه عزَّ وجلَّ : ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد : ٧] .

فعلينا أن نأخذَ لكلِّ موقفٍ ، ولكل أمرٍ أسبابَه

الصحيحة ، كما أمر اللّهُ عزَّ وجلَّ ، مع الإيمان دومًا بأن الأسباب لا تصِلُ بنا إلى المطلوب إلَّا بإرادةِ اللّه وفضْله ، فهو سبحانه خالقُ الأسباب وخالقُ المُسَبَّباتِ والنتائج وثَمَرات الأعمالِ والجهود .

* * *

وكان النُّعاسُ أمنًا وطُمأنينةً :

وكان مِن نعَمِ اللّه سبحانه على المؤمنين في بدرٍ أن بثَّ الطُّمأنينةَ في نُفوسِهم ، وجَعَلهم يَشْعُرون بأمنٍ وراحةٍ نفسيَّةٍ وهُدوءِ بالٍ ، ولْنَسْمَعْ قولَ اللّه عزَّ وجلَّ يُذكِّرُ المؤمنين بفضلِه عليهم : ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾

[الأنفال : ١١] .

وكان هذا النعاسُ في اللَّيلةِ التي كان القتالُ من غدِها ، فكان هذا النومُ عجيبًا ، مع ما كان أمامَهم من كثرةِ عدوِّهم ، وإصرارِه على القتالِ ، ولكنَّ اللّه سبحانه

قوَّى قُلوبَهم، ورَبَط جأشَهم، قال عليٌّ رضِي اللَّه عنه: **«لقد رأيتُنا وما فينا إلَّا نائمٌ، إلَّا رسولَ اللَّه ﷺ تحتَ شجرةٍ يُصلِّي ويَبْكي حتى أصْبَحَ»**.

ومن نعمةِ اللَّه على المؤمنين بالنَّومِ في هذه اللَّيلةِ أنْ قوَّاهم بهذه الاستراحةِ على القتالِ من الغدِ، وأنْ أمَّنَهم بزوالِ القلَقِ مِن نُفوسِهم، إنَّها عنايةُ اللَّه عزَّ وجلَّ حَفِظَتهم وحَرَستهم:

وإذا العنايةُ لاحَظتْكَ عُيونُها
نَمْ فالـمخاوفُ كلُّهنَّ أمانُ

* * *

تجرىءُ كلِّ فريق على الآخر:

ولتزيدَ الطُّمأنينةُ في قلوب المسلِمين، فإنَّ اللَّه سبحانه وتعالى بفضله وعونِه قَلَّل حُشودَ الكفَّارِ في نَظَرِهم، ثم أطْمَع الكفَّارَ في الحربِ فرأَوا - أيضًا - المسلمينَ قِلَّةً، حتى يَجْترِئَ كلُّ فريقٍ على الآخرِ، وتَحْدُثَ المعجزةُ بأن يتحقَّق وَعْدُ اللَّه بنصرِه أولياءَه، ويَرى الناسُ في كلِّ عصرٍ

العبرةَ ماثلةً أمامَهم ، ولنتدبَّرْ قولَ الحقِّ تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال : ٤٤] .

قال ابنُ مسعودٍ : « قلتُ لإنسانٍ كان بجانبي يومَ بدرٍ : أتراهُم سبعين؟ فقال : هم نحوَ المائةِ » . فتأمَّل الألفَ شَخصٍ يراهم العبدُ نحو مائة ، فسبحان القادر على كلِّ شيءٍ .

وفي ابتداءِ القتالِ كان أبو جَهْلٍ يقولُ عن المسلمين إنَّما هم أَكَلَةُ جَزُورٍ - أي هم لقلَّةِ عددِهم يَكْفِيهم ويُشْبِعُهم لحمُ ناقةٍ واحدةٍ - خُذُوهم أخذًا وارْبِطُوهم بالحبالِ ..» فيأمَّل كلامَ أبي جهلٍ في ابتداءِ القتالِ ، وعندَ رؤيتِه لعددِ المسلمين .

لقد كان نزولُ الملائكةِ ، وإلقاءُ النُّعاسِ ، وتقليلُ عددِ الكفَّارِ في نظرِ المسلمين سبيلًا إلى بَثِّ الطُّمانينةِ ، وتسكينِ القلوبِ ، وكان نزولُ المطرِ مُزيلًا لوسْوسةِ الشيطانِ ، ومُثَبِّتًا

للأقْدام على الأرضِ الهشَّةِ ، حتى لا تتعثَّرَ الأقدامُ ، وسَبَبًا مِن أسبابِ الثِّقةِ والأمنِ .

* * *

وقبضة من التُّراب :

وأراد اللَّه عزَّ وجلَّ أن يُرِيَ الناسَ آيةً أُخرى مِن آياتِه ليزدادوا ثقةً بوَعْدِه ، ويزدَادَ يقينُهم بنصرِ أوليائِه ، إذا هم أخْلَصوا نيَّاتِهم للَّهِ ، وصدَقوا في جهادِهم لنُّصرةِ الحقِّ .

قال عليُّ بنُ أبي طلحةَ نقلًا عن ابنِ عباسٍ رضي اللَّه عنهم : رفَعَ رسولُ اللَّه ﷺ يَدَيه يومَ بدرٍ ، وقال : « **يا ربِّ إنْ تَهْلِكْ هذه العصابةُ فلن تُعبَدَ في الأرضِ أبدًا** » ، فقال له جبريلُ عليه السلام : « **خُذْ قبضةً من التُّرابِ فارْمِ بها في وُجوهِ القومِ** » .

فأخَذَ عليه السلامُ قبضةً من التُّرابِ ، فرمَى بها في وُجوهِهم ، فما من المشركين أحدٌ إلَّا وأصاب عَيْنَيه ومَنْخِريه وفَمَه ترابٌ من تلك القَبْضةِ ، فولَّوْا مُدْبرين ثم رَدَفهم المسلمون يَقْتُلونهم ، ويأسِرُونهم .

* * *

والنَّصْرُ من اللَّه وحده :

واللَّه عزَّ وجلَّ يذكِّر المؤمنين بذلك ليَشْكُروا نِعْمَتَه ، ويُفوِّضوا أمْرهَم دائمًا إليه وحده ، فيقولُ سبحانه : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال : ١٧، ١٨] .

* * *

أي لم يكنْ ذلك النَّصرُ الذي أحْرَزتُموه ، والهزيمةُ التي لحِقَتْ بعدوِّكم برمْيتِك يا محمدُ ، لولا الذي جعَل اللَّهُ فيها من أسبابِ نَصْرِك ، وما ألقَى في صُدورِ عُدوِّك مِن الفزعِ والرُّعبِ ، فاللَّهُ عزَّ وجلَّ هو الذي أعانَك وأظْفرك وبقُدْرته وحده نَصَرك ، وذلك ليُبْلِيَ المؤمنين منه بلاءً حسنًا ، أي ليُعرِّفَهم بعضَ نعمتِه عليهم ، فقد أظْهَرَهم على عدوِّهم مع قِلَّةِ عَدَدِهم ، وكثرة عَدَدِ أعدائهم ؛ ليعرِفوا بذلك حَقَّ المنعم سبحانه وتعالى ، وليَشْكُروا نِعْمَتَه .

واللَّهُ عزَّ وجلَّ هو الذي يُلْقي الرُّعبَ في قُلوبِ الكافرين حتى يتشتَّتوا، ويتفرَّقَ جمْعُهم، فيضعُفَ كيدُهم ومَكْرُهم: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ما أعظمَ النَّصرَ ينزِلُ من عند اللَّه على القُلوبِ المُؤمنةِ المطمئِّنة! فيعلُو الحقُّ، ويَزْهَقُ الباطلُ.

* * *

وَلِقَاء : مَعَ القَائِدِ الهَادِى

ويَزيدُ دومًا حُبُّنا وتَعلُّقُ قلوبنا به ﷺ .

يقولُ الحقُّ تبارك وتعالى : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

في حياةِ الرسولِ محمدٍ ﷺ جوانبُ متعدِّدةٌ للعظمةِ الإنسانيةِ .. **من مكارمِ الأخلاقِ ، والرحمةِ ، وعفَّةِ اللِّسانِ ، ولينِ الجانبِ ، والعَدْلِ مع العدوِّ والحبيبِ ، وبُعْدِ النَّظرِ ، والقيادةِ الرائدةِ الحكيمةِ ، والثَّبات في مَواطِنِ البأسِ ، مع نُور البَصيرة ، وقُوَّةِ اليقين ، وصِدْقِ التوكُّلِ على الواحد الأحدِ .**

ونَوَدُّ أن نعيشَ مع القائدِ الهادي في غزوةِ بدرٍ الكُبرى لحظاتٍ ، نَلْتمِسُ فيها بعضَ جوانبِ العظمةِ النفسيَّةِ ، والقيادةِ الرائدةِ الحازمةِ ، لعلَّنا نَنْتفعُ بذلك في حياتِنا .

* * *

لقد كان ﷺ يأخُذُ الحيطةَ لكلِّ أمرٍ ، ويَلْتفتُ لمواطنِ

الضعفِ ، يُقوِّيها ، ويُزيلُ أيَّ خلَلٍ ، كما كان يُشارِكُ أصحابَه فيما ينتابُهم من خيرٍ أو شرٍّ ، ويُسَوِّي نفسَه بهم ، ويُسيطرُ على قلوبِهم برِفْقِه ولينِه ، ورقَّته ورحمَته ، وحُسْنِ تَوْجِيهِه وإرشادِه ، فانقادُوا له عن رضًا واقتناعٍ ومَحبَّةٍ ، وتعلَّقت بمحبَّته قُلوبُهم ، وتفانَوْا في طاعتِه ، وكان ﷺ يتواضَعُ لهم ، ويأخُذُ رأيَهم ويُشاوِرُهم في الأمْرِ .

وبفضلِ قيادةِ الهادي الحبيب ﷺ تحقَّق الخيرُ للإسلامِ وللإنسانيةِ ، فأنقَذَها من الجهلِ والكفرِ ، والحيرةِ والضّلالِ ، وأرْشَدها إلى مَواطِنِ الخيرِ والحقِّ والعدْلِ .

ونحنُ حينَ نتأمَّلُ أعمالَ رسولِ اللَّهِ ﷺ في غزوةِ بدرٍ الكُبْرى نُدْرِكُ سرَّ النجاحِ العظيمِ الذي حَقَّقه بفضلِ قيادتِه الهاديةِ .

* * *

قيادةٌ على نورٍ وبصيرة :

فقد عَرَفنا أنَّ النبيَّ ﷺ خرَج مِنَ المدينةِ المنوَّرة على نيَّةِ اعتِراض القافلةِ التِّجاريةِ ، لهذا لم يَعْقِدْ لواءً لجُنْدِه ،

ولكنَّه عليه السلامُ بعد أن صار على بُعد ميلٍ مِن المدينةِ المنوَّرةِ عسكرَ بعضَ الوقتِ ، وقام بتنظيمِ أصحابِه ، في تشكيلٍ حربيٍّ يُلائمُ ظُروفَ السَّيرِ في أرضِ العُدوِّ ، حتى يَأْمَنَ المفاجأةَ .

التنظيمُ الحربيُّ :

لهذا جَعَل على السَّاقةِ قَيْسَ بنَ أبي صَعْصَعةَ ، وجَعَل على المُقدِّمة الزُّبيرَ بنَ العوَّامِ ، وأظْهَر السلاحَ ، وعَقَد ألويةً ثلاثةً .

يقولُ أحدُ العسكريِّين في ذلك : « إنَّ النبيَّ ﷺ قَدَّر مَسْؤُوليته – كقائدٍ – عن ضرورةِ وقايةِ قوَّاتِه ، وتأمينِها مِنَ المفاجأةِ في أثْناءِ السيرِ » .

وبثُّ العيون :

ولكي يَقِفَ النبيُّ ﷺ على أخبارِ عدوِّه ، واتجاهِ سَيْرِه ، ويطمِئنَّ إلى سلامةِ الأرضِ التي يسيرون عليها ، بَعَث عليه السلامُ عُيونَه ورجالَ مُخابراته أمامَه ، يبحَثُون عن أخبارِ العيرِ (القافلة التجاريَّة) ، واتِّجاهِ سيرِها .

وحينَ علِم ﷺ بخُروج قُريشٍ للحربِ جَعَل يَبُثُّ العُيونَ

في كلِّ مكانٍ ، ويتحَسَّسُ أخبارَ عدوِّه ، ويَسْأَلُ عنهم في مُنْتَهى الحيطةِ والحذَرِ ، حتى أنَّه ﷺ قام بنفْسِه ومعه بعضُ أصحابِه برحلةٍ للاسْتِكْشافِ ، والتعرُّفِ على أخْبارِ قريشٍ ، وهكذا ظلَّ ﷺ يأخُذُ حِذْرَه ويتتبَّعُ أخبارَ عدوِّه حتى عَرَف أعْدادَهم وقادَتَهم ، ثم أقبلَ على أصحابِه يقولُ لهم : « **هذه مكةُ ألْقَتْ إليكم أفْلاذَ كَبِدِها** » أي صَفْوةَ رجالِها وشبابِها .

الكتمانُ وسِرِّيَّة الحركة :

وكان ﷺ شديدَ الحرصِ على كِتْمانِ أمرِهِ عن الناسِ ، حتى لا يَقِفَ العدوُّ على حَقِيقَتِهم ، ولا يَعْرِفَ أحدٌ مَقْصِدَهم : ولذا أمَرَ ﷺ بأنْ تُقْطَّعَ الأجراسُ مِن أعناقِ الإبلِ حتى لا تُحْدِثَ صوتًا يَلْفِتُ النَّظرَ في أثناءِ السيرِ .

الشُّورى ومجلس الحرب :

وكان ﷺ يُشاوِرُ أصحابَه ، ويَقْبَلُ الصَّائبَ من آرائِهم ، وما فيه مصلحةٌ ظاهرةٌ من أفكارِهم ، فقد عَرَفْنا أنَّه ﷺ عَقَد مَجْلِسَ حربٍ في وادِي الذَّفران اسْتشار فيه أصحابَه ، وسَمِع منهم ما سَرَّه ، فقال لهم : « **سِيرُوا على بَرَكةِ اللَّهِ** » .

وحين اختارَ لجيشِه مَكانًا عندَ أوَّلِ مياهِ بدرٍ ، قال له الحُبَابُ بنُ المُنذرِ : « يا رسولَ اللَّه ، أهذا منزِلٌ أنْزلَكَه اللَّهُ ، ليس لنا أن نتقدَّمَ عنه ، أو نتأخَّرَ ، أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ ؟ » فقال ﷺ : « **بلْ هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ** » .

فقال الحُبابُ : « يا رسولَ اللَّهِ ، فإنَّ هذا ليس بمنزلٍ ، فانْهَضْ بالناسِ حتى أدْنَى ماءٍ من القومِ ، فَنَنْزِلَه ، ثم نغوِّرَ ما وراءَه من القُلُبِ - أي ندْفِنها ونَسُدُّ عُيونَها التي يَنْبع منها الماءُ - ثم نَبني عليه حَوضًا فنملَؤُه ماءً ، ثم نُقاتلُ القومَ ، فنشْرَبُ وهم لا يَشْرَبون » .

فقال الرسولُ ﷺ : « **لقد أشَرْتَ بالرأي** » ، وأمَرَ عليه السلامُ بالتحرُّكِ إلى المكانِ الذي أشار به الحبابُ رضي اللَّه عنه ، ثم أمَرَ بالقُلُبِ فغُوِّرت ، وبَنَى حوضًا على القليبِ الذي نَزَل عليه ، فمُلِئَ ماءً .

وكما أشار الحبابُ ببناء الحوضِ ، أشار سَعْدُ بنُ معاذٍ رضي اللَّه عنه على رسولِ اللَّهِ ﷺ أن يبنوا له عَرِيشًا - شِبْهَ خيْمةٍ يستَظِلُّ به - يُشْرِفُ منه على المعركةِ ويُوجِّهها ،

ويأمَنُ غِرَّةَ العدُوِّ ، وتكونُ بجانبِه الرَّكائبُ مُعَدَّةً لركوبِ رسولِ اللَّه ﷺ يعودُ بها إلى المدينةِ إذا لم يَتَيَسَّرِ النَّصرُ .

فأثْنى عليه رسولُ اللَّهِ ﷺ خيرًا ، ودعا له بخيرٍ ، ثم بَنَى الصحابةُ العريشَ - وهو ما نُسمِّيه حُجْرةَ القيادةِ - فكان فيه ﷺ وقتًا ، حسب مقتضياتِ المعركة .

* * *

القائدُ يشارِكُ جُنده ﷺ :

ومن جوانب عَظمتِه في تواضُعِه ، وفي رِفْقِه بأمَّتِه أنه ﷺ كان يُسوِّي نفسَه بأصحابِه ، فلم يَقْبَلْ أن يَسْتريحَ ، وهم يتعَبون ، أو يَجْلِسَ وهم يَعْمَلون ، أو يَرْكَبَ وهم يمشُون .

قال عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ رضِي اللَّهُ عنه : كنا يومَ بدرٍ كلَّ ثلاثةٍ على بعيرٍ - أي يتبادَلُون الركوبَ عليها - وكان أبو لُبابةَ وعليُّ بنُ أبي طالبٍ زميلَيْ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، قال : فكانت عُقْبةُ رسولِ اللَّهِ - أي المرةُ التي يَرْكَبُ فيها - فقالا له : نحنُ نمشي عنك يا رسولَ اللَّهِ - ليظَلَّ راكبًا - فقال ﷺ : « **ما**

أنتما بأقوَى مني على المشْيِ ، ولا أنا بأغْنَى منكما عن الأجرِ » .

* * *

صور من الرحمة والتواضع :

وهكذا كانت حياةُ القائدِ الهادي ﷺ بينَ أصْحابِه : كان جَمَّ التواضُع لهم ، عظيمَ البرِّ بهم ، شدِيدَ الحَدَبِ والعَطْفِ عليهم ، ولم يستأْثر ﷺ بشيءٍ دونَهم .

كما كان ﷺ يُشارِكُهم في السرَّاءِ والضرَّاءِ ، ويَقْبَلُ هَداياهم ، ويُجِيبُ دَعْوةَ الغنيِّ والفقيرِ ، ويزُورُ مَرِيضَهم حتى التقَتِ القُلوبُ كلُّها على محبَّتِه ، وتعلَّقتِ النفوسُ به ، وملأَ قلوبَهم هيبةً وَرِضًا .

* * *

صور من عظمة القيادة :

وكان عليه السلامُ شديدَ الحرصِ علىتهيئةِ كلِّ عواملِ النصرِ لأصحابِه :

١ - فكان ﷺ يقومُ في العريشِ (حجرة القيادة) طَوالَ اللَّيلِ ، وأصْحابُه نيامٌ : يدْعو ربَّه ، ويستغيثُه ، ويطلُبُ نَصْرَه ،

وكان من دعائه لأصحابه : « **اللَّهمَّ إنَّهم عُراةٌ فاكْسُهم ، اللَّهمَّ إنَّهم جياعٌ فأطعِمْهم ، اللَّهمَّ إنَّهم حُفاةٌ فاحمِلْهم ، اللَّهمَّ إنْ تَهْلِكْ هذه العصابةُ من أهلِ الإسلامِ لا تُعْبَدْ في الأرضِ أبَدًا** » .

٢ - وفي الصباحِ يَخْرُج ﷺ إلى أصحابِه يتفقَّد مواقِعَهم ، ويُسوِّي صُفوفَهم ، ويهيِّئُ جُنْدَ اللَّه للقتالِ ، ويَختارُ لهم أفضل المواقعِ ، ويَطْلُب إليهم أن يَسْتقبِلُوا المَغْرِبَ ؛ لتكونَ الشمسُ وراءَهم ، فلمَّا وَصل المشركون كانتِ الشمسُ أمامَهم .

٣ - ثم كان عليه الصلاةُ والسلامُ يسِيرُ بينَ الصفوفِ متفقِّدًا رِجالَه ، مشجِّعًا لهم ومحمِّسًا ، وداعيًا إلى الجهادِ ، ومرغِّبًا في نيلِ الشهادةِ ، ومحرِّضًا على الثباتِ والإقدامِ وعلى إخلاصِ الجهادِ للَّهِ عَزَّ وجلَّ ، وكان مِمَّا قاله لهم : « **إنَّكم قد أصبَحْتم بـمنزلٍ من منازلِ الحقِّ ، لا يَقْبَلُ اللَّهُ فيه مِن أحدٍ إلَّا ما ابتُغي به وَجْهُه ، وإنَّ الصبرَ في مواطنِ البأسِ مِمَّا يُفرِّجُ اللَّه به الهمَّ ، ويُنَجِّي به من الغمِّ ، وتُدْرَكُ به النجاةُ في الآخِرة** » .

٤ - وحينَ يَحْمَى الوطِيسُ ، ويشْتدُّ القتالُ ، كان ﷺ

يُشارِكُ أصحابَه ، ويُقاتِلُ معهُم العدوَّ أشدَّ القتالِ ، ثم يعودُ إلى العريشِ يدْعو ربَّه ، ويستَغيثُه ويطلُبُ نصرَه ، ثم ينزِلُ إلى الميدانِ يشُدُّ عزائمَ أصحابِه ، ويُبَشِّرُهم بالنصرِ ، ويقولُ لهم : « **شُدُّوا ، سَيُهزمُ الجمعُ ، ويُوَلُّون الدُّبُرَ** » .

وكان لهذه المشاركةِ الكريمةِ من القائدِ الهادِي أثرٌ كبيرٌ في نُفوسِ المؤمنين ، جَعَلهم يَحْمِلون على عدوِّهم حملةً صادقةً ، حتى انهارت قُوى العدوِّ ، وتحقَّقَ النصرُ لجندِ اللَّه ، بفضل اللَّه وعونه وحده .

* * *

وانتصَر المسلِمون في غَزْوةِ بدرٍ على الرَّغْمِ مِن ضَعْفِ الوسائلِ الماديَّةِ وقلَّةِ العددِ ، وكان ذلك بفضلِ اللَّه وعونِه وتأْييدِه ، ثمَّ إنَّ هذا النصرَ كان دليلًا على مَهارةِ النبيِّ ﷺ في القيادةِ ، وعلى حِذْقِه فُنونَ الحربِ ، وقُدْرتِه على إدارةِ المواقِعِ ، وعلى تَقْديرِه الصحيحِ قوَّتَه وقوةَ أعدائِه ، ودليلًا على معرِفته ما يَجِبُ على القائدِ : من الاحتماءِ والابتعادِ عن مواطنِ الخطَر ؛ ليستمرَّ في إصْدارِ الأوامرِ ، وهو في الوقتِ

نفسِه ، كان دائمًا قريبًا من جُنْدِه يُشَجِّعهم ، ويقوِّي قُلوبَهم .

ولقد أظْهَرَ ﷺ فِطْنَةً عظيمةَ الشَّأنِ في القيادةِ وصفاتٍ عُليا يَحْسُدُه عليها كبارُ رجالِ الحربِ في كلِّ جيلٍ ، ويكفي أنه تـمكَّن بفئةٍ قليلةٍ من قهرِ فئةٍ أكبرَ منها ، فقد كان عدوُّه أكثرَ عددًا وأكثرَ استعدادًا .

واستطاع ﷺ بجُنودٍ حُفاةٍ عُراةٍ أن يَقْهَرَ جيشًا من أغنياءِ قريشٍ وساداتِها ، وهم مُسلَّحون تسليحًا كاملًا ، وتـمكَّنَ ﷺ وهو في مكانٍ أقلَّ ارتفاعًا من مكانِ أعدائِه أن يَغْلِبَهم ، وأن يُشَتِّتَهم ، ويُلجِئَهم إلى الفِرارِ .

صَلَّى اللَّه وسَلَّم عليك يا حبيبَ الرحمنِ ، ويا مُحرِّرَ الإنسانِ من القَهْرِ والذُّلِّ والعُبوديةِ لغيرِ اللَّه ، وصلواتُ اللَّهِ عليك وسلامُه يا هاديَ البشريَّةِ ، ويا قائدَ الغُرِّ المحجَّلين ، يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين .

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قُلوبَنا على دينك ، وارْزُقنا الشَّهادةَ في سبيلك ، واحْشُرنا تحت لواءِ نبيِّك حبيبك ، صلواتُ اللَّه وسلامُه عليه .

اليَهُودُ
بَعدَغزوةبَدرٍ

إنَّ عداوةَ اليهودِ للإسلامِ والمسلمين ليستْ حدِيثةً ، وإنَّما حِقْدُهم على الإسلامِ ، وحَسَدُهم نبيَّ الإسلامِ كان منذُ بعثةِ الهادي الحبيبِ ﷺ .

وقبلَ غزوةِ بدرٍ الكُبْرى كانوا يَسْعَوْن بكلِّ جُهدِهم للكيدِ للنبيِّ ﷺ ولأصحابِه على الرَّغْمِ مِن أنَّ أحبارَهم كانوا أعْلَم الناسِ بصدْقِه ، وبأنَّه النبيُّ الذي بَشَّرتْ به التوراةُ ، ولكنَّ الحسدَ والعصبيَّةَ الحمقاءَ حَالَا بينَ غالِبيَّتِهم وبينَ قَبولِ الحقِّ والدخولِ في الإسلامِ .

أمُّ المؤمنين صفيَّة تحكى لنا :

إنَّ صفيَّةَ بنتَ حُيَيِّ بنِ أخْطَبَ - وكان من أحبارِ اليهودِ- كانت تقولُ بعدَ أن أسْلَمَتْ ، وصارت من أُمَّهاتِ المؤمنينَ رضِي اللَّه عنها ، عن أبيها وعن عمِّها ، واسمُه أبو ياسرٍ ، تقول : إنَّها رأتهما ليلةَ قُدومِ النبيِّ ﷺ إلى المدينةِ

ورؤيتِهما له ، وقد أصابَهما غمٌّ شديدٌ ، وتقولُ : وسمِعتُ عمِّي أبا ياسرٍ وهو يقولُ لأبي حُيَيٍّ بنِ أخْطَبَ : أهو هو ؟ يعني أهو النبيُّ المنتظَرُ الذي بَشَّرت به التَّوراةُ ؟ قال : نعم واللَّهِ .. قال أبو ياسرٍ : أتَعْرِفُه وتُثْبِتُه ؟ أي أأنت متأكِّدٌ مِن صِفَتِه ؟ قال حُيَيٌّ : **نعم ، قال : فما بقِي في نفسِك منه ؟ قال : عداوتُه ما حَيِيتُ .**

انظروا : إن حُيَيَّ بنَ أخطبَ حبرٌ مِن أحبارِ اليهودِ ، رَأى الرسولَ محمدًا ﷺ ، وعرَف أنَّه خاتمُ النبيِّين ، وأنَّه النبيُّ الذي بشَّر به موسى عليه وعلى رسولنا أفضلُ الصلاة والسلام وقد أمَرَ اليهودَ باتِّباعه ، والإيمانِ به ومُناصرتِه إذا هم رأَوْه أو علِموا بظُهورِه ، وحُيَيٌّ مع هذا لا يُخْفي حِقْدَه ولا حَسَدَه ويُصِرُّ على عَداوتِه لرسول اللَّه ﷺ طَوالَ حياتِه .

وهذه القصَّةُ صُورةٌ أُخْرى نُضِيفُها للصورةِ التي عَرَضْناها لموقفِ اليهودِ من النبيِّ والإسلامِ قبلَ غزوةِ بدرٍ ، ثم نَعْرِضُ بعدَ ذلك بعضَ مواقفِهم مِن الإسلامِ حينَ علِموا بانتصارِ النبيِّ ﷺ على المشرِكين في بدرٍ الكُبْرى .

لقد كان انتصارُ المسلمين ، وهم أهلُ توحيدٍ ، على المشركين عُبَّادِ الأصنامِ في غزوةِ بدرٍ الكُبْرى جديرًا بأن يَدْفَعَ اليهودَ - وهم أهلُ كتابٍ - إلى السُّرورِ والرضَا ، ولكنَّ المؤسفَ حقًّا أنَّ اليهودَ غاظَهم انتصارُ أهلِ التوحيدِ على أهْلِ الشركِ ، وكبُرَ على نُفوسِهم أن يَنْتَصِرَ المسلِمون ، وتَقْوَى شَوْكَتُهم في المدينةِ ، وأحْزَنَهم أن يَعِزَّ الإسلامُ ويَظْهَرَ على دينِهم ، وأن يكونَ للرسولِ محمدٍ ﷺ الحظوةُ والمكانةُ .

وكان أحبارُ اليهودِ ورُؤساؤُهم - إلَّا مَن هَدَى اللَّه - يَحْسُدون الرسولَ ﷺ مع عِلْمِهم بصِدْقِه ، وقد ظلَّتْ نُفوسُهم تَغْلِي وتَفُورُ بالعداوةِ سِرًّا حتى رَأَوْا أمْرَ الإسلامِ يَسْتَعلي ، ويَظْهَرُ بعدَ الانتِصارِ في غزوةِ بدرٍ ، فلم يُطيقُوا بعدَها إسرارَ العداوةِ وأخَذُوا يُجاهِرون بها ، غيرَ عابِئين بالعهودِ والمواثيقِ التي بينَهم وبينَ المسلمين والتي تَكْفُلُ لهمُ الحياةَ الآمنةَ ، وحرِّية العبادةِ ، وتُؤَمِّنُهم على الأرواحِ والأموالِ والممتلكاتِ ، لم يُرْضِهم هذا كلُّه ، ولم يُرْضِهم تَسامُحُ الإسلامِ ، ورِعايةُ العهودِ ، فأخَذوا يَعْمَلون على الكيدِ

لدينِ اللَّه الحقِّ بكلِّ ما يَسْتَطِيعُون .

وكان مِن بوادرِ هذه العداوةِ السافرةِ أنَّهم جزِعوا أشدَّ الجزَع حينَ بلَغهم نبأُ انهزامِ قريشٍ في مَوْقعةِ بَدْرٍ ، حتى قال اليهوديُّ كعبُ بنُ الأشرفِ حينَ وصَل خبرُ النصرِ إلى المدينةِ على لِسانِ زَيْدِ بنِ حارِثةَ وعبدِ اللَّه بنِ رَواحَةَ ، اللَّذَيْن بعَثَهما رسولُ اللَّه ﷺ بَشِيرَيْن بفتحِ اللَّه عزَّ وجلَّ عليه ، ولِيُبَلِّغا الناسَ بأسماءِ مَن قُتِلوا مِن زعماءِ الشركِ والضلالِ ، قال كعبٌ حينَئذٍ : أحقٌّ هذا ؟ أتَرَوْن محمدًا قَتَل هؤلاء الذين يُسمِّي هذا الرجلان ؟ فهؤلاء أشرافُ العربِ وملوكُ الناس ، واللَّهِ لئن كان محمدٌ أصابَ هؤلاءِ القومَ لَبَطْنُ الأرضِ خيرٌ من ظَهْرِها .

فلمَّا تيقَّنَ عدُوُّ اللَّه كعبُ بنُ الأشرف الخبرَ ، خرَج حتى قدِم مكَّةَ ، فنَزل على بعضِ أهلِها من الحانِقين بسبَبِ هزيمةِ المشركين فأكْرَموه ، وجَعل يُحرِّضُ على رسولِ اللَّه ﷺ ، ويُنْشِدُ الأشعارَ ، ويَبْكِي أصحابَ القَلِيبِ من قريشٍ ، وهمُ الذين قُتِلوا ببدرٍ ، وألقَى المسلمون جُثَثَهم في القليب

مُوارَةً للأجساد ، وكان مِمَّا قاله في إظهَارِ الحزنِ على مَن قُتِلوا ليُثِيرَ حميَّةَ أهلِيهم :

قُتِلَتْ سَرَاةُ النَّاسِ حَوْل حِيَاضِهِمْ
لا تَبْعَدُوا إنَّ المُلُوكَ تُصَرَّعُ

كَمْ قَدْ أُصِيبَ بهِ مِنْ أبْيَضَ مَاجِدٍ
ذِي بَهْجَةٍ يَأْوِي إلَيْهِ الضُّيَّعُ

ويَقُولُ أقْوَامٌ أُسَرُّ بِسُخْطِهِمْ
إنَّ ابنَ الاشْرَفِ ظَلَّ كَعْبًا يَجْزَعُ(١)

صَدَقُوا فَلَيْتَ الأرْضَ سَاعَة قُتِّلوا
ظَلَّتْ تَسُوخُ بأهْلِهَا وتُصَدَّعُ

وهكذا أخَذَ كعبُ بنُ الأشرف- وكانت أُمُّه مِن يهودِ بني النضيرِ – أخَذ هو وغيرُه من يهودِ المدينةِ يَنْقُضُون عهدَ المسالمةِ الذي عاهَدُوا عليه رسولَ اللَّه ﷺ ، وانطَلَق هو وبعضُ شعراءِ اليهودِ يَسْتَهْزئون بالمسلمين ، ويُهوِّنون مِن

(١) كعبًا : وترتيب الشَّطر [إن ابن الأشرفَ كعبًا ظلَّ يجزعُ] وقد اقتضى الوزنُ الشِّعريُّ التقديمَ والتأخير ، أي ظلَّ وبقى حزينًا على قتلى المشركين .

شأنِ انتصارِهم في بدرٍ ، ويَهْجُون رسولَ اللَّه ﷺ ، وينالونه بالكلامِ القارصِ .

* * *

وكان يهودُ بني قَيْنُقاعَ يسْكُنُون بينَ المسلمين في وسَطِ المدينةِ ، وكانوا من أصحابِ الأموالِ وحَمَلةِ السلاحِ ، فجاهَروا الرسولَ ﷺ بالعداوةِ ، وأساءوا الأدَبَ مع المسلمين ، ونالُوا من نِسائِهم بألسِنَتهم ، وتجرَّأ بعضُهم على امرأةٍ عربيةٍ في السُّوقِ ، فكشَفَ سَوْءَتَها إمعانًا في إثارةِ النفوسِ ، وإيقادِ نارِ الفتنةِ تَنْفِيسًا عمَّا يَشْعُرون به من الغيظِ بعدَ انتصارِ المسلِمين في بدرٍ .

وبهذه العداوةِ التي أسْفَرَ عنها يهودُ بني قَيْنُقاعَ وكَعْبُ بنُ الأشرفِ امتلأتِ النفوسُ بالغضبِ .

* * *

رحمةٌ ودعوة إلى السِّلم :

ومع هذا فإنَّ الرسولَ الرحيمَ الحبيبَ ﷺ دَعا رؤساءَهم ، وجمَع كثيرًا مِن رجالِهم وشَبَابِهم في سُوقِ بني

قَيْنُقاع ، وتحدَّث إليهم فحذَّرهم ﷺ عاقبةَ البغْي ، ونَقْضِ العهدِ ، وقال لهم : « **يا معشرَ اليهودِ ، احذَروا مِن اللّه مثلَ ما نزَل بقريشٍ مِن النِّقمةِ– أي في بدر– وأسْلِموا ، فقد عرَفْتم أنِّي نبيٌّ مرسَلٌ تجِدون ذلك في كتابِكم وعهدِ اللّه إليكم** » .

فقابَلَ اليهودُ نُصْحَ النبيِّ ﷺ ورِفْقَه باللُّؤم والخسَّةِ وقالوا له : يا محمدُ ، أرأيتَ أنَّا قومُك ؟ لا يَغُرَّنَّك أَنَّك لقِيتَ قومًا لا عِلْمَ لهم بالحربِ ، فأَصَبْتَ منهم فُرْصةً ، إنَّا واللّه لئن حارَبْناك لتَعْلَمَنَّ أنَّا نحن الناسُ .

وفي هذا الكلام ما فيه من التَّهديد وسوءِ النَّوايا .

* * *

أصرُّوا على عداوة سافرة :

وإزاءَ هذه العداوةِ السافرةِ التي أبْدَاها يهودُ بني قَيْنُقاع ، صار المسلمون لا يأمَنون جانِبَهم ، وأنزَلَ اللّهُ على رسولِه ﷺ : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال : ٥٨] .

وبعدَ أن بَدَتِ الخيانةُ مِن أعينِ هؤلاء ، كان لابُدَّ مِن

عملٍ حاسمٍ يُؤمِّنُ المسلمين مِن شرِّهم، فحاصَرَهم النبيُّ ﷺ مُدَّةً حتى استَسْلَموا، وبعدَ أن استسلموا أذِنَ لهمُ النبيُّ ﷺ بالخروجِ مِن المدينة على أن يترُكوا الأموالَ والسلاحَ.

* * *

مصيرُ مُثيرِ الفِتَن :

أمَّا كَعْبُ بنُ الأشرفِ الذي هَجَا المسلمين، وشَبَّبَ بنسائِهم، وحرَّض المشركين عليهم، فقد عَادَ مِن مكةَ بعدَ أن أثارَ النُّفوسَ وحرَّكَ الرغبةَ في الانتِقامِ لدى المشركين، لذا حَكَم المسلمون عليه بالإعْدامِ، وكان مَقْتَلُه عدلًا، لأنَّه غَدر بالعهدِ، ودَعا إلى قَتْلِ رسولِ اللَّه ﷺ.

ورَوَى المَقْرِيزِيُّ أنَّ اليهودَ لمَّا جاءوا إلى رسولِ اللَّه ﷺ يَشْكُون إليه مَقْتَلَ كعبِ بنِ الأشرفِ، قال لهم ﷺ: « **إنَّه لو قرَّ كما قرَّ غيرُه مِمَّن هو على مثلِ رأْيِه ما اغْتِيلَ، ولكنَّه نال منَّا بالأذَى، وهجانَا بالشِّعْرِ** ».

أي: جزاءً وِفاقًا.

فهذا دليلٌ على أنَّه قُتِل لأنَّه عدوٌّ غيرُ مُسالمٍ، نَقَض

العهْدَ وظاهرَ أعداءَ الإسلامِ ، وآذَى الحلفاءَ ، فقَتْلُه جائزٌ في جميعِ الشرائعِ والقوانينِ .

* * *

تلكم لمحاتٌ مِن عداوةِ اليهودِ للإسلامِ ، ولنبيِّ الإسلامِ ، عداوةٌ سَبَبُها الحسَدُ والحقدُ على أكرمِ نبيٍّ وعلى خيرِ أمةٍ أُخْرِجتْ للناسِ ، عداوةٌ أعْلَنُوها على ألسنةِ الضَّالِّينِ مِن زُعمائِهم ، والنصرُ دومًا للدِّينِ الحقِّ ، مهما تحصَّنَ أعداءُ اللَّه .

إنَّ هؤلاء اليهودَ المُصرِّين على الجحود هم الأعداءُ ، أعداءُ اللَّه ، وأعداءُ رُسلِه ، وأعداءُ كُتُبِه ، فحقَّتْ على الكافرين المُصِرِّين منهم لعنةُ اللَّه والملائكةِ والناسِ أجمعينَ .

* * *

مُثُل وَقِيَم ومبَادِئ مِن يَومِ الفُرْقَانِ

بعد تلك الرِّحلةِ مَعَ أصحابِ بدرٍ ، يجمُلُ بنا أن نُوردَ في شيءٍ من الإجْمالِ بعضَ المثُلِ ، والقيمِ ، والمبادئ التي يُمْكِنُ أن نَسْتَخْلِصَها ، عسَى اللَّهُ أن يَشْرَحَ صُدُورَنا للانتِفاعِ بها ، والاقْتداءِ بنبيِّنا الهادِي ﷺ .

ومِن ذلك :

أولًا – الشُّورى :

أسَّسَ رسولُ اللَّه ﷺ دَوْلَةَ الإسلامِ على الإخاءِ والمساواةِ الحقَّةِ والشُّورى ، فلم يكنْ ﷺ يَقْطَعُ برأيٍ – فيما لم يكنْ فيه وحيٌ – دُونَ أصحابِه ، ولم يكنْ ﷺ يَنْفَرِدُ بأمرٍ مِن غيرِ أن تَجْتَمِعَ عليه الكلمةُ ، وقد رأيناه ﷺ في اللَّحظاتِ الحرجةِ التي سَبَقتِ التقاءَ الجمْعَينِ يومَ بدرٍ يستَشِيرُ أصحابَه عند وادِي الذَّفرانِ ، كما رأيناه أخَذَ برأيِ الحُبابِ بنِ المنذرِ في اخْتِيارِ الموْقعِ ، وبرأيِ سَعْدِ بنِ معاذٍ

في بناءِ حُجْرةِ القيادةِ .

وبهذه الشورى السليمةِ مدَح اللَّه المؤمنين فقال : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى : ٣٨] كما أمَر اللَّهُ بها فقال لنبيِّه ﷺ : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

* * *

ثانيًا : الطاعةُ :

يقولُ اللَّه تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال : ٢٠] .

لقد كان أصْحابُ رسولِ اللَّه ﷺ مَضْرِبَ الأمثالِ في حُسْنِ الامْتثالِ وفي الانْقِيادِ لأمْرِ اللَّه ورسولِه ، وفي مَعْركةِ بدرٍ الكُبرى أبْلَوْا البلاءَ الحسنَ ، وأطاعُوا وتفانَوْا في أداءِ الواجِبِ ، وما نكَص واحدٌ على عَقِبَيه ، وما تردَّد واحدٌ منهم في قبولِ أمرِ اللَّه حينَ بلَّغه رسولُه ، بل قالُوا على لسان المتحدِّث منهم : « **امْضِ يا رسولَ اللَّه لِما أمَرَك اللَّه ، فنحن معك** » . **كما قالوا : « واللَّهِ لئن خُضْتَ بِنا هذا البحرَ لخُضْناه**

مَعَك ما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ » .

ولا شَكَّ أنَّ الأُمةَ التي تُطِيعُ اللَّه ورسولَه ، وأُولي الأمرِ منهم ، تَصِلُ إلى أهْدافِها ، وتُحقِّق آمالَها ، ويُبارِك اللَّه خُطُواتِها .

* * *

ثالثًا : المساواةُ :

حقَّق الإسلامُ المساواةَ الصحيحةَ بينَ الناسِ فأزالَ ما بينَهم من فَوارقِ النسبِ ، والحسَبِ ، والجاهِ ، والمالِ ، واللَّونِ وجَعَلهم إخْوةً مُتحابِّين ، وقد حقَّقَ الرسولُ ﷺ المساواةَ في المجتمَع الإسلاميِّ ، ونادَى : **بأنَّ الناسَ كلَّهم لآدمَ ، وآدمُ من ترابٍ ، وأنَّه لا فَضْلَ لأحدٍ على أحدٍ إلَّا بالتَّقوى والعملِ الصالحِ** .

ونحنُ حينَ نعودُ لحوادثِ غَزْوةِ بدرٍ نَرى مِن مَظاهرِ المساواةِ ما يلي :

- كان النبيُّ ﷺ يَتبادَلُ مع صاحِبَيْه دابةً واحدةً للركوبِ ، ولم يَقْبَلْ ما أشارا به مِنْ أنْ يركَبَ وَحْدَه ، وهما

سَعِيدان بالسَّيْرِ إلى جانبِه .

– خَرَج رسولُ اللَّه ﷺ يُعدِّلُ الصُّفوفَ وفي يده قَدَحٌ – عُودٌ – يُعدِّلُ به القَوْمَ ، فمرَّ بسَوَّادِ بنِ غَزِيَّةَ ، وهو متقدِّمٌ على الصَّفِّ فوصَلَتِ الطَّعْنةُ بالقدح إلى بَطْنِه رضي اللَّه عنه ، وقال : « **استوِ يا سَوَّادُ** » . فقال سَوَّادٌ : يا رسولَ اللَّه ، أوْجَعْتَني ، وقد بَعثَك اللَّهُ بالحقِّ والعَدْلِ ، فأقِدْني – أي اقْتَصَّ لي من نفسِك – .

فكَشَف رسولُ اللَّه ﷺ عن بَطْنِه الشَّريف ، وقال : « **استَقِدْ** » فاعْتَنَقَ سَوادٌ رسولَ اللَّه ، وقبَّلَ بَطْنَه ، فقال له النبيُّ ﷺ : « **ما حَمَلَك على هذا يا سَوَّادُ ؟** » فقال : يا رسولَ اللَّه ، قد حَضَر ما ترَى – يَقْصِدُ المعركَةَ – فأرَدْتُ أنْ يكونَ آخرَ العهدِ بك أنْ يَمَسَّ جِلدي جِلْدَك ، فدعا له الرسولُ ﷺ بخيرٍ .

ولا عَجَبَ في موقفِ رسولِ اللَّه ﷺ ، وهو الذي قال : « **والذي نفسُ محمدٍ بيدِه ، لو أنَّ فاطِمَةَ بنتَ محمدٍ سَرَقَت لقَطَعْتُ يَدَها** » .

- وفي طريقِ عَوْدَته ﷺ مِن بدرٍ إلى المدينةِ لقيَه حَجَّامُه (الحلَّاقُ) أبو هِنْدٍ مَوْلَى فَرْوةَ بنِ عمرٍو البَيَاضِيِّ، ومعه زِقٌّ فيه طَعامٌ، وهو ممَّن تخلَّف عن بدرٍ، ولكنه حضَر الغزواتِ كلَّها مع رسولِ ﷺ بعدها، فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنَّما أبو هندٍ امرؤٌ مِن الأنصارِ فَأنكِحُوه - أي زَوِّجوه من بناتِكم إذا خَطَب - وأنكِحُوا إليه - أي واطْلُبوا الزواجَ بمن يكونُ عندَه من البناتِ**». ففَعَلوا - أي أطاعُوا أمْرَ رسولِهم الحبيبِ في تَزْويجِ المولَى من بناتِهم إذا طَلَب، والرسولُ ﷺ يَهْدِمُ بذلك عُنْجُهيَّةَ الجاهليةِ وتَعاليَها بالقبائلِ والآباءِ.

* * *

رابعًا - صِلةُ الإيمانِ أقْوى وأقربُ مِن صِلَةِ النَّسبِ والقرابةِ:

فأُخوَّةُ الإسلامِ أقوى رابطةٍ تَجْمَعُ بين المسلم وأخيه المسلم، والإسلامُ يعتزُّ برابطةِ الإيمانِ، ويَجْعَلُها أساسًا في التَّعاطُفِ والتراحُمِ والتَّساندِ، يقولُ الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ولهذا رأينا في مَعْركَةِ بدرِ الكُبْرى رأينا الابنَ يُجاهِدُ في سبيلِ اللَّه ، ويُحاربُ جندَ الشيطانِ وفيهم أبوه ، فقد كان أبو حذيفةَ بنُ عُتْبةَ بنِ ربيعةَ مؤمنًا وأبوه مات على الكُفرِ ، ورُمي بجثَّتِه في القليبِ أمامَ عَيْنَيْه .

وحين كان رسولُ اللَّه ﷺ في طَرِيقِه إلى المدينةِ المنوَّرة أهْدرَ دَمَ رجُلين مُجْرِمَيْن من الأسْرى ، هما النَّضرُ بنُ الحارثِ ، وعُقْبةُ بن أبي مُعَيْطٍ ، باعتبارِهما مَجْرِمَيْ حَرْبٍ ، لا لـمجَّردِ كَوْنِهما أسِيرَيْ مَعْركةِ ، فلمَّا أدْرك النضرُ أنَّ الرسولَ ﷺ أهْدَرَ دَمَه لجأ إلى قَريبِه مُصْعَبِ بنِ عُمَيرٍ رضِي اللَّه عنه ، وطَلَب إليه أن يَشْفَعَ له عندَ رسولِ اللَّه ﷺ ، فقال له مُصْعبٌ : « إنَّك كنتَ تقولُ في كتابِ اللَّه ، وفي نبيِّه كذا وكذا ، وكنت تُعَذِّبُ أصحابَه » .

فقال له النضرُ : لو أسَرَتْك قريشٌ ما قَتَلَتْك أبدًا وأنا حيٌّ .

فقال له مُصْعَبٌ : « واللَّه لا أراك صادِقًا ، ثم إنِّي لستُ مثلَك فقد قَطَع الإسلامُ العهودَ » أي أنَّ صِلَةَ الإسلامِ أقْوى

من أي صِلةٍ أُخرى ، ولهذا فهو لا يَشْفَعُ في مُجرمٍ قال عن القرآنِ : إنَّه أساطيرُ الأولين ، واتَّهم النبيَّ ﷺ بالكذبِ ونَقْلِ ما في صُحُفِ الأوَّلِين ، ثم ضَرَب عليٌّ بنُ أبي طالبٍ عُنُقَ النَّضرِ .

ولـمَّا حان موعدُ إعدامِ عُقْبَةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ أخَذَ يُذكِّرُ ، فقال : أتقتُلُني يا محمدُ مِن بينِ قريشٍ ؟ قال الرسولُ : « **نَعَمْ ، أتَدْرون ما صَنَع هذا بي ؟ جاء وأنا ساجدٌ خلفَ المقامِ ، فوَضَع رِجْلَه على عُنُقي ، وغَمَزَها فما رَفَعها حتى ظَنَنْتُ أنَّ عينيَّ سَتندِران (ستَخْرُجان) وجاء مرةً بسَلَا شاةٍ- أي بقذارتِها وأمعائِها- فألْقاه على رأْسِي** » .

وبسببِ جرائمِ عقبةَ في حقِّ الإسلامِ ورسولِه تقدَّم عليُّ ابنُ أبي طالبٍ وقتَلَه ، ولم يَشْفَعْ له كونُه من قريشٍ .

وكان أبو عَزيزِ بنُ عُميرٍ وهو أخو الصحابيِّ الجليلِ مصعبِ بنِ عميرٍ لأبيه وأُمِّه في الأُسَاري ، فرآه مصعبٌ ورجلٌ من الأنصار يأسِرُه ، فقال مصعبٌ : « شُدَّ يَدَيْك به » ، فالتفتَ أبو عَزيزٍ ، وقال لأخيه مُصْعبٍ : « **يا أخي :**

أهذه وصاتُك بي؟» فقال له مصعبٌ: «إن الأنصاريَّ أخي دونك».

ولمَّا علِمت أُمُّه بالأمر أرْسَلَت أربعةَ آلافِ درهمٍ ففَدَتْه بها.

وهكذا يؤكِّد الإسلامُ أنَّ المسلمَ أخو المسلم مَهْما اختلفَتِ الأجناسُ وتباينتِ الأنسابُ، ويؤكِّد أنَّ رابطةَ العقيدةِ هي الرابطةُ الحقيقةُ، ولنتدبَّرْ قولَ اللَّه عزَّ وجلَّ لنوح عليه السلامُ: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾ [هود: ٤٦].

* * *

خامسًا- التجرُّدُ للمبدأ، وإخلاصُ العملِ للَّهِ:

ذلك أنَّ أملَ المسلم الصادقِ في إيمانِه أن يَنْتشِرَ الإسلامُ، وأنْ يَعِيشَ أهلُه آمنين في أوطانِهم، ثم إنَّ المسلمَ يَجْعَلُ حياتَه وقْفًا على صِيانةِ عقِيدتِه، وحمايةِ دينِه ومُقدَّساتِه، مع إخلاصِ عملِه وجهادِه للَّه لا يُلَوِّثُ ذلك بالتعلُّق بماديات الحياةِ الدنيا فيقدِّمها على دينِه وعقيدتِه.

ولهذا نجدُ القرآنَ الكريمَ قد عاتَبَ المؤمنين وحاسَبَهم على مَوْقِفين، مَوقفٍ سابقٍ على المعركةِ، ومَوْقفٍ لهم في أعقابِها:

* * *

أمّا الموقفُ الأولُ:

فنَلْمَسُه حين استَشارَ رسولُ اللَّه ﷺ أصحابَه في قتالِ القومِ، فقال بعضُ الأنصارِ: «لا، واللَّهِ، ما لنا طاقةٌ بقتالِ العدوِّ، ولكنّا أرَدْنا العِيرَ»، فلمّا كرَّر النبيُّ ﷺ سؤالَه سمِع ما سَرَّه من بقيةِ الصحابةِ، فخَجِل الأنصارُ الذين قالوا ما قالوا آنفًا، ورجَعوا عن رأيهم، وتابُوا مِمّا بدَرَ منهم من الرأي غير السديد، ولكنَّ اللَّه حاسَبَهم على تعلُّقِ نُفوسِهم بالتِّجارةِ، وإبداءِ الكراهيةِ في أوَّلِ الأمرِ للقتالِ، ولنتدبَّرْ قولَ اللَّه تَعالى في سورةِ «الأنفالِ»: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ

ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال : ٥- ٨] .

* * *

أمّا الموقفُ الثاني :

فيَرويه لنا عُبَادةُ بنُ الصَّامتِ رضِي اللَّه عنه وعن الصَّحابة أجمعين، يقولُ : « خرَجْنا مع النبيِّ ﷺ، فشهدْتُ معه بدرًا ، فالتقَى الناسُ ، فهزَم اللَّهُ العدوَّ ، فانطلَقَتْ طائفةٌ في آثارِهم يُطارِدُون ويقتُلُون ، وأَكَبَّتْ طائفةٌ منهم على المغنم يَحوزونه ويجمَعُونه ، وأحْدَقت (أحاطَتْ) طائفةٌ برسولِ اللَّه ﷺ، لا يُصيبُ العدوُّ منه غِرَّةً .

حتى إذا كان اللَّيلُ وفَاءَ الناسُ بعضُهم إلى بعضٍ (اجتَمعوا) قال الذين جَمَعوا الغنائمَ : نحن حَوَيْناها وليس لأحدٍ فيها نَصِيبٌ .

وقال الذين خرَجوا في طَلَبِ العدوِّ : لسْتُم أحَقَّ بها منا ، نحن نَحَّينا عنها العدوَّ ، وهزَمْناه .

وقال الذين أحْدَقوا بالرسولِ ﷺ : خِفْنا أن يُصِيبَ العدوُّ منه غِرَّةً ، فاشتَغَلْنا به » .

« وإزاء هذا الخلافِ على تَوْزيع الغنائم ، أنزَل اللّه سبحانه وتعالى صَدْرَ سورةِ « الأنفالِ » : بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال : ١] .

أي إنَّ الحكمَ في الأنفالِ ، أي الغنائم ، للّهِ وَحْدَه ، ورسولُه يتولَّى توزِيعَها كما أمَرَه ربُّه ، وأمَرَهم سبحانه بخَشْيته وإصلاحِ ذاتِ بينِهم بسَبَبِ ما كان بينَهم مِن جدالٍ في أمرِ الغنيمةِ ، على أن يُطِيعُوا اللّه دائمًا وينقادُوا لأمرِ رسولِه ﷺ ، فتابُوا ورَجَعوا ، وكانت تلك أولَ تَجْرِبةٍ لهم من هذا البابِ بعدَ الإسلام .

وتولَّى الرسولُ ﷺ قِسْمَتَها كما أمَرَ اللّه عزَّ وجلَّ .

سادِسًا – الوفاءُ :

الوفاءُ كان من خُلُقِ النبيِّ ﷺ الذي بعَثَه رَبُّه لِيُتَـمِّمَ

مكارِمَ الأخلاقِ ، وقد بَرَز هذا الـخُلُقُ الكريمُ ومَعْركَةُ بدرٍ على أشُدِّها حين قال النبيُّ ﷺ لأصحابِه يوَمَئِذٍ : « **إنِّي قد عَرَفْتُ أنَّ رجالًا من بني هاشمٍ وغيرِهم ، قد أُخْرِجوا كَرْهًا لا حاجَةَ لهم بقتالِنا ، فمن لَقِي منكم أحدًا من بني هاشِمٍ فلا يَقْتُلْه ، ومن لقِيَ أبا البَخْتَرِيِّ بنَ هشامِ بنِ أسَدٍ فلا يَقْتُلْه ، ومن لقِـي العباسَ بنَ عبدِ المطَّلبِ عمَّ رسولِ اللَّه ﷺ فلا يَقْتُلْه ، فإنَّه إنَّما خرَج مُسْتَكْرَهًا** » .

وهذا الوفاءُ مَبْعثُهُ مواقفُ هؤلاء من نبيِّ الإسلامِ في مكةَ ، ومِن المعركةِ بعدَ ذلك :

- فالعباسُ رضي اللَّه عنه كان أحدَ المدافِعِين عن النبيِّ ﷺ في مكةَ ، وهو الذي خَرَج ليلًا إلى العقبةِ ليَحْضُرَ بيعة أهلِ المدينةِ ، وليَطْمَئِنَّ على أنَّ ابنَ أخيه لن يَلْحَقَه أذًى من أحدٍ .

- وأبو البَخْتَرِيِّ كان أكفَّ الناسِ عن رسولِ اللَّه ﷺ وهو بمكةَ ، وكان لا يُؤْذيه ، ولا يَبْلُغُه عنه شيءٌ يَكْرهُه ، وكان مِمَّن قام في نَقْضِ الصَّحيفةِ التي كَتَبَتْها قريشٌ للتَّضْييقِ

على بني هاشمٍ وبني المطلبِ وحِصارِهم ، وإنْ كان قد قُتِل في المعركةِ بسببِ عدمِ تخلِّيه عن حِمايةِ مُشْرِكٍ زَميلٍ له ، فنازَلَه الـمُجذِّرُ بنُ زيادٍ حليفُ الأنصارِ فقتَلَه ، واعتَذر لرسولِ اللَّه ﷺ .

- أمَّا بنو هاشِمٍ : فقد رَغِبوا في الرجوعِ قبلَ المعركةِ لولا إصْرارُ أبي جهلٍ على بقائِهم معه .

* * *

سابعًا- الاعتمادُ على اللَّه ، وطَلَبُ النصرِ منه وَحْدَه :

ومعنى ذلك أنَّ المسلمين حين يُواجِهون أعداءَهم يَنْبغي لهم أن يُفوِّضوا كلَّ أُمورِهم إلى اللَّه وَحْدَه ، وأن يُخْلِصوا قُلوبَهم ونيَّاتِهم للَّهِ ، وألَّا تَخْدَعَهم كَثْرتُهم وقُوتُهم عن الاعتمادِ عليه سبحانه ، وألَّا تَصْرِفَهم قِلَّتُهم أو ضَعْفُ عُدَّتِهم عن الدِّفاعِ عن عقيدتِهم ودينِهم وحقِّهم مع الثباتِ في مواجهةِ الباطلِ وأعوانِه .

وقد عرَفنا من تفاصيلِ يوم الفرقانِ كيف انتصَرتِ القِلَّةُ المؤمنةُ الصابرةُ على الكثرةِ الكافرةِ : ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ

عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٢٦] .

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال : ١٧] .

ثم رأينا درسًا فيما بعدُ في غزوةِ حُنينٍ حين أُعْجِبَ المسلمون بكثْرتِهم - وكانوا اثْنَيْ عَشَرَ ألفًا - وغَفَلوا في لحظةٍ من اللَّحظاتِ عن ربِّهم ، فقال بعضُهم : « إنَّنا لن نُغلَبَ اليومَ من قِلَّةٍ » ، فكانتِ النتيجةُ أنَّهم فرُّوا عند الصدْمةِ الأُولى ، وأدَّبهم ربُّهم فقال سبحانه : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة : ٢٥] .

والاعتمادُ على اللَّه والتوكُّلُ عليه لا يُنافِي - طبعًا - أن يُعِدَّ المسلمون عُدَّتَهم لعدوِّهم ، ويتخِذُوا الأُهبةَ كما أمَرَهم اللَّه ، وأن يكونوا على استِعدادٍ دائمٍ لكلِّ مُفاجأةٍ بقدرِ استطاعتِهم .

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

تلكم هي بعضُ المبادئ والقِيَمِ والعِبَرِ التي يُمْكِنُ أن نَسْتَخْلِصَها من غزوةِ بدرٍ الكُبرى ، التي جَرَت أحداثُها في اليومِ السابعَ عَشَرَ من شهرِ رمضانَ المباركِ في السنةِ الثانيةِ من الهِجْرةِ النبويَّة الشَّريفةِ .

* * *

كَلِمَة خِتَامِيَّة :

يقولُ المؤرِّخون : إنَّ الأُمةَ التي تَنْسَى ماضِيَها تَعِيشُ كالنَّباتِ الغريبِ في التُّربةِ ، يَنْمو ثم يَموتُ ، ويتلاشَى وكأنَّه لم يُوجَدْ .

وأُمَّتُنا الإسلاميةُ ارتبطَ تاريخُها بالإسلامِ ، واكْتَسَبَتْ أصَالَتَها مِنَ الانتِماءِ لدينِ اللَّه ، وامْتَزَجت دِماءُ أبنائِها في معارِكِهم ضدَّ الغُزاةِ والطامِعينَ في بلادِنا الإسلاميَّةِ ضدَّ : الرُّومانِ ، والتَّتارِ ، والصَّليبيِّين ، والصَّهاينةِ ، والمستعْمِرين الغربيين ، والملاحِدَةِ الشُّيوعيِّين .

ونحنُ المسلمين لنا ماضٍ عريقٌ ، فأجدادُنا هُمْ صانعُو الحضارةِ ، وبجُهودِهمُ المخلصةِ في ميادينِ العلمِ والاقتِصادِ والسِّياسةِ والاجتِماعِ قامَتْ أعْظَمُ حضارة عرَفها التاريخُ ، وبجهادِهمُ الصادقِ انتشرَ العَدْلُ واستقرَّ السَّلامُ ، وخرَجتِ الإنسانيةُ من ظلامِ الحَيْرةِ والضَّلالِ والجَهْلِ إلى نُورِ الهُدى والإيمانِ والعلمِ .

فعلينا معشرَ المسلمين أن نُعْنَى بتربيةِ شَبابِنا على العقيدةِ الصحيحةِ ، وأن نُبَصِّرَهم بأمجادِنا الإسلاميةِ ، ونُحَصِّنَ عُقولَهم بالتربيةِ السَّليمةِ ، وأن نَعْرِضَ عليهم سِيرةَ نبيِّنا ﷺ ، وسيرةَ أصحابِه الكرامِ رضِي اللَّه عنهم ليكونَ لهم من ذلك القدوةُ الطيبةُ ، ولِيسيرُوا على النَّهْج المستقيمِ في الأَخْلاقِ والإخْلاصِ والتَّفاني في نُصْرةِ الدِّينِ ، والدفاعِ عن عقيدةِ التوحيدِ ومقدَّساتِ المسلِمين .

وصَلَّى اللَّه على نبيِّنا محمدٍ وعلَى آلِه وصَحْبِه وسَلَّم .

ونسألُه سبحانه وتعالى أن ينصُر أمةَ الإسلام على الطَّامعين في خيراتها الحاقدين على أبنائها ، وأن يجمعنا في ظلِّ رحمته تحت لواءِ رسوله محمدٍ صلَّى اللَّه عليه وسلم يوم الدِّين آمين .. آمين .

أحمد بن محمد طاحون

مقديشو في : ١٩٦٧ من الميلاد

* * *

كشاف الكتاب

بِناءُ المُسْلِمِ

١ - الإيمانُ باللّه عَزَّ وجَلَّ ، بوجودِه ، ووحدانيَّته ، وبأنه لا معبودَ بحقٍّ سواه .

٢ - الإيمانُ بجميع الرسُل والأنبياء وخاتمهم النَّبيِّ محمد صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين .

٣ - الإيمان بالملائكة ، وبأنَّهم عبادٌ مُكْرَمون ، لا يَعصُون ربَّهم ويفعلون ما يؤمَرون .

٤ - الإيمانُ بالقرآن الكريم وجميع الكتب والصحف التى أنزلت على الأنبياء .

٥ - الإيمانُ بالقَدَرِ خيره وشرِّه ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ .

٦ - الإيمانُ باليوم الآخر .

٧ - الإيمانُ بالبعث والنُّشور .

٨ - الإيمانُ بالحشْر بعد البعث من القبور إلى الموقف .

٩ - الإيمانُ بأن دار المؤمنين الجنة ، ودار الكافرين النار .

١٠ - الإيمان بوجوب محبَّةِ اللّه عَزَّ وجَلَّ .

١١ - الإيمانُ بوجوب الرَّجاء من اللّه تعالى .

١٢ - الإيمانُ بوجوب الخوف من اللّه : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

١٣ - الإيمانُ بوجوب التوكُّل على اللّه عَزَّ وجَلَّ .

١٤ - الإيمانُ بوجوب حُبِّ النَّبيِّ محمدٍ ﷺ .

١٥ - الإيمانُ بوجوب تعظيم النَّبيِّ محمدٍ ﷺ وتبجيله وتوقيره .

١٦ - حبُّ المؤمن لدينه ، وحرصُه عليه ، وشحُّه به لا يُفرِّط فى شرائعه .

١٧ - طلبُ العلم : للعلم بالعقائد والعبادات والحلال والحرام (الفقه) .

١٨ - ومن تمام ذلك العملُ على نشر العلم كلٌّ بقدر ما وهبه اللّه .

١٩ - تعظيم القرآن الكريم بتعلُّمه وتعليمه وتدبُّره .

٢٠ - وجوب الطهارة من الحدثيْن الأكبر والأصغر فلا تصحُّ الصلاة إلَّا بذلك .

٢١ - أداء الفرائض : الصلاة ، وصوم رمضان ، وإخراج الزكاة ، وحج البيت ، والإمساك عن كل ما حرَّم اللّه على عباده ، وتطهير القلب والجوارح من كلِّ ما يُغضب اللّه .

٢٢ - الإيمانُ بوجوب الجهاد ، والمرابطة ، والثبات للعدوِّ لردِّه عن النفوس والدِّيار .

٢٣ - مع الوفاء بالعهود والعقود ، وشكر نعم اللّه عَزَّ وجَلَّ ، وحفظ اللِّسان عن الفحش والسوء ، مع حُبِّ المؤمنين وأداء الأمانات ، والابتعاد عن الكبائر والمعاصى واتِّقاء الشُّبهاتِ والصَّغائر ، وتحريم كل ما حرمه اللّه كالملاهى المخالفة لشرع اللّه .

٢٤ - هذا مع الاقتصاد فى النفقة ، والكسب الحلال ، وتركِ الحسد والغِلِّ ، وتحريم أعراض الناس وأموالهم ، واحترامِ حقوقِهم وجِيرتهم .

٢٥ - مع معالجة كلِّ ذنب بالمبادرة إلى التوبة النصوح ، وعليك أيها المؤمنُ باتِّباع أوامر الإسلام ، فرائضه وواجباته وسننه ، والابتعاد عن كل ما يغضب اللّه .

٢٦ - أن يَفِىَ المسلمُ بالعقود ، أى : بما أحلَّ اللَّه ، وما حَرَّم ، وما فَرَض ، وما حدَّ فى كتابه .

٢٧ - إظهارُ النِّعمة بدون خُيلاء مع التواضُع والشُّكر للمنعم الوهَّاب .

٢٨ - طاعةُ أولى الأمر فيما لا معصية فيه للَّهِ ، لحديث « من أطاعنى فقد أطاع اللَّه ، ومن عصانى فقد عصى اللَّهَ ، ومن يُطِع الأمير فقد أطاعنى ، ومن يعصِ الأميرَ فقد عصانى » . وفى ذلك حفاظ على سلامة الأمة وقوَّتها .

٢٩ - الحُكمُ بالعدل لأنه أساس السلامة والأمن على النفس والمال والعرض والبدن .

٣٠ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كلٌّ فرد فى حدوده ولو بإنكار المنكر بالقلب .

٣١ - التعاونُ على الخير وتحقيق الازدهار والتَّواصى بالصبر على الطاعة وعلى إحقاق الحقِّ .

٣٢ - الإحسانُ إلى الوالدين والرِّفقُ بهما وطاعتهما وحسنُ الأدب معهما .

٣٣ - صلةُ الرَّحِم من أقارب الأب وأقارب الأم ففى ذلك تماسُك وقوة .

٣٤ - حُسْن الخلق مع سائر الناس ، والحياءُ من اللَّه ، والحياءُ من الناس .

٣٥ - الإحسانُ إلى الأجير والخادم ونحوهما ، وقيامُ هؤلاء بالواجب فى رفق وإحسان .

٣٦ - مقاربةُ أهل العلم ، وأهل الدِّين ، وإفشاءُ السلام بينهم ،

والانتفاع بخبراتهم ومسالكهم الطيِّبة ، فذلك من التعاوُن على البرِّ والتقوى .

٣٧ - ومن ذلك ردُّ السلام وإفشاؤه بين المسلمين ، وإعطاءُ الطريق حقَّه .

٣٨ - وعيادة المرضى ، والصلاةُ على الميِّت من أهل القبلة ، واتباع جنازته ، والمواساة .

٣٩ - اجتناب مجالس أهل الشرِّ والسوءِ والمفسدين فى الأرض ، وإظهار عدم الرِّضى عن الأعمال المنافية لآداب الشريعة وأحكامها .

٤٠ - إكرامُ الضيف ، ومواساةُ الغريب ، وإكرامُ الجار .

٤١ - عدم إشاعة السوءِ عن المؤمنين والمؤمنات ، والرفقُ فى توجيه المذنبين لمساعدتهم على الاستقامة والتوبة النصوح .

٤٢ - القناعة والرضا بما قسمه اللَّهُ ، وعدمُ الركونِ إلى المتاع الزائل .

٤٣ - الإعراضُ عن اللَّغو والباطل والنميمة ، مع الغيرة على الحُرمات .

٤٤ - الرغبةُ والمشاركة فى مساعدة العاجز والمسكين والمريض والضعيف .

٤٥ - السعىُ فى الإصلاح بين الناس وجمعِهم على المحبَّة .

٤٦ - وأن تحبَّ لأخيك ما تُحب لنفسك ، وأن تزيل الأذى عن الطريق .

هذه خلاصة واشرح لنفسك وأهلك وإخوانك .

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٧ م

رقم الإيداع : ١٤٣١٤ / ٢٠٠٧

الناشر



٠٤٥/ ٣٣ ٢٠ ١٢١
٠١٢/ ٧٦ ٢٠ ٧٦٤ ـ ٠١٠/ ٥٤ ٠١ ٥٩٤
دمنهور ـ أمام البريد العمومى